الباب الرابع
الأسلوب والكاتب

الفصل الاول
تمهيد

ذكرنا في الباب الثالث كيف يختلف الأسلوب باختلاف الموضوع وقد رأينا أن ذلك الاختلاف اللفظي انما كان ظاهرة محتومة لاختلاف طبيعة الفنون الأدبية من حيث عناصرها المعنوية أولا، وغاياتها التعليمية أو التأثيرية أو كلتيهما ثانيا ، فكان لكل من المقالة ، والقصيدة ، والخطابة ، والرواية أسلوب خاص وانتهى بنا القول الى صحة هذه الكلمة المأثورة : الأسلوب هو الموضوع .

وهنا نقول فى ناحية ثانية هى اختلاف الأساليب تبعا لاختلاف المنشئين سواء أكانوا كتابا أم خطباء أم شعراء أم مؤلفين الى غير هذا ، فالموضوع هنا واحد - - خطابة أو كتابة أو شعر — ولكن الأشخاص يتعددون ، فإذا بالأسلوب يختلف فى الفن الواحد باختلاف هؤلاء الأدباء إذ نرى لكل منهم طابعا خاصا — فى تفكيره ، وتعبيره ، وتصويره — ممتازا به من الآخر فى هذه العناصر . . . . وقد يصح لنا بعد ذلك أن نقول مع القائلين : الأسلوب هو الكاتب ، أو هو الرجل الى نحو ذلك من العبارات .

ومع هذا ، فينبغى ألا ننسى أن المرجع الأول لهذين النوعين من اختلاف الأسلوب هو نفس الانسان ، وما يعرض له من دواع ينشىء فيها الأدب ، فاذا أردنا بيان ذلك في الفنون الأدبية رأينا أن الأديب بنفسه يعتمد علي عقله ، ليشرح نظرية علمية ، أو مسألة اجتماعية أو قاعدة قانونية ، فهو فى هذه الحالة منشىء المقالة (كاتب) ومرة أخرى تجده نفسه منفعلا بمؤثر العاطفة يتغنى آماله وآلامه بهذه اللغة الموسيقية الخاصة فاذا به شاعر ، ومرة ثالثة يلجأ الى العقل والعاطفة معا للاقناع والتأثير مستعينا جسمه ومظهره الحسي فيكون خطيباً ، وأسلوبه الكتابي يخالف الشعرى ، وكلاهما غير الخطابى ، وهكذا تتشكل النفس أشكالا شتى ، فتصدر عنها فنون متباينة لكل أسلوبه الخاص وغايته الممتازة ، فالشخص واحد والفن مختلف.

واذا أردنا بيان ذلك بالنسبة للأديب عكسنا الوضع فالفن واحد ، ولكن الأشخاص يتعددون . وبذلك نجد لهؤلاء الأدباء آثارهم المتباينة فى تكييف الأسلوب تبعا لما يمتاز به كل أديب فى عقله وشعوره ، وخلقه ، وثقافته ، ومذهبه فى الحياة . وبناء على ذلك يستطيع قراء الأدب أن يتبينوا فى الفن الواحد ، وفى الموضوع الواحد من الفن أساليب مختلفة فى الكلمات ، والصور ، والعبارات ، وفى طرق التفكير ولون المزاج ومستوى الرقى والتهذيب ، وخلاصة ماذكر هنا تنتهى الى أمرين اثنين :—

الأول : أن مقتضى الحال — أو الدواعى — يحمل الانسان على اختيار الفن الأدبي الذى يؤدى به ما يشاء ، رسالة ، أو مقالة ، أو خطابة أو قصيدة ، فيسلك فى أسلوبه مسلكا خاصاً هو هذه العبارات اللفظية التى تلائم فنه ، وقد مضي القول فى ذلك .

الثانى : أن الأديب ـ فى حدود هذا الفن ، ومع التزامه خواصه الأسلوبية العامة ـ يطبع الأسلوب طابعا آخر ممتازا . وخاصا به هو ، بحيث لا يتوافر لصاحبه فى نفس الفن أو الموضوع ، وبذلك يتحقق للأسلوب ميزتان : ميزة عامة من حيث هو خطابة أو شعر أو كتابة وميزة خاصة من حيث هو أثر لأديب ممتاز ، فالخطابة لها خواصها الأسلوبية العامة التى ذكرت ، وخطابة الحجاج لها فوق الخواص العامة ، ما يمتاز به الحجاج في مزاجه ، وخلقه ، ومذهبه فى الحكم ، وكلماته ، وعباراته . والشعر كذلك ذو أسلوب مميز بالوزن والقافية والموسيقا وغيرها . ولكن المتنبى مثلا له فى أسلوبه ـ زيادة على ذلك ـ خواص فى التفكير والتعبير ، والسلوك تفرقة عن أبى تمام والبحترى والمعرى . وللكتابة أسلوب خال من قيود الشعر وتقاليد الخطابة . أما الجاحظ مثلا فيمتاز مع ذلك بلوازم فى تعبيره وتصويره . واسهابه لا تراها عند البديع مثلا ، ولا ابن العميد ، ولا ابن خلدون . والامر واضح فى الكتاب المعاصرين . فكل من طه حسين . واحمد امين . والعقاد . والمازنى . والبشرى . له ميزاته فى تفكيره وتعبيره ، وطريقة عرضه الآراء ، وطابع أسلوبه العام من الوضوح . والقوة والجمال

على أن هذه الميزات ـ أو الشخصية الأدبية ـ لا تكون فردية فقط بل تكون كذلك اجتماعية . فنجد العصر الواحد من العصور الأدبية له طوابع عامة شائعة بين أدبائه ، منها تتكون ميزاته الأدبية ، أو شخصيته الأسلوبية التى يخالف بها سائر العصور . ونجد الشعب الواحد له خواصه الأدبية التى تفرقه من شعب آخر يوافقه فى لغته ، وجنس أدبه .

فالعصر الجاهلى لهشخصيته الأدبية التى تتلخص فى أنها صحراوية

بدوية ، خشنة ، جاهلة ، مضطربة ، ذكية ، تعتمد على الحس اكثر من غيره ، وتشتق عناصرها الخيالية من المفاوز العريضة ، والجبال الشماء ، والوعول الممتنعة ، والظباء النافرة ، والابل الصابرة ، والخيل السابقة ، ومن الخباء والأطناب والأوتاد ، والنؤى والأحجار ، فكان الأسلوب اللفظى لذلك جزلا ، قويا ، ضخما . فيه جفاء الصحراء وسذاجة البداوة ، وطبيعة الارتجال . نعده غريبا عنا وإن كان لهم مألوفا . والعصر العباسى ذو أدب حضرى ، مترف ، مثقف . هادىء ، مستقر ، يعتمد على العقل المفكر ، والعلم الكثير ، والمزاج الرقيق ، والحياة الخصبة الناعمة ، والبيئة الاجتماعية المنظمة ، ففاض الأدب بالمذاهب الدينية والفلسفية ، وامتاز بالتنسيق والعمق ، واعتمد على الطبيعة الجميلة ، والأزهار الناضرة ، والقيان الفاتنة ، ورق أسلوبه ولانت عباراته ، فكان أدبا حضريا مهذبا ، على العموم .

وعصرنا الحديث له طابعه العام فى الأدب كذلك ، يتراءي فى هذا الجهاد المتواصل ، والنهضة النشيطة . وحرية التفكير والتعبير ، والتأثر الشديد بالآداب الأجنبية ، والحضارة الغربية . والتجديد فى إنشاء الأدب ودراسته والتخلص من التقليد ، وبلوغ النثر أسمى منزلة ظفر بها فى تاريخه حتى رأينا الأسلوب دقيقا ، حرا ، واضحا ، جميلا ، يقصد إلي خدمة المعاني والأفكار وحتى صار الأدب عالميا موضوعيا طريفا مشاعا بين الطبقات .

كذلك الشأن فى الأمم ، فمنذ القرن الهجرى الرابع أخذت الأقاليم الاسلامية التي فتحها العرب . ونشروا فيها اللغة ، والدين ، والأدب العربى تسترد حريتها وتبعث قوميتها ، وتحيا حياة مستقلة عن بغداد ، فأخذ الأدب نفسه يتأثر بذلك وظهر فى كل إقليم بمظهر ممتاز ، متأثرا في هذا بتاريخ

هذه الأقطار ، وطبيعتها ، وخواص شعوبها الوطنية ، وما توافر لها من نظم الحكم ، وأحداث السياسة ، وأنواع العلوم والفنون ، وما كان لها من ترات لغوى أدبى حتى كان الأدب العراقى ، والأدب المصري ، والأدب الأندلسى ، والأدب الفارسى كما هو معروف في تاريخ الأدب العربي.

وذلك مشاهد بيننا الآن ، فالأدب العربى ، يعيش الآن فى مصر والشام والعراق والمغرب وبلاد العرب ومهاجر أمريكة . ومع ذلك نجده فى كل من هذه الأقطار يخضع لثقافة أهله ، وبيئتهم ، وأحوالهم السياسية والاجتماعية ، ودرجتهم فى الرقي .. ويتأثر أسلوبه اللفظى بذلك إلى حد كبير . ولعل الأسلوب فى مصر أقواها وأرعها وأخصبها جميعا، لما أتيح لها من معاهد كبيرة ، ومكاتب كثيرة ، ودراسات منظمة ، وعناية بالثقافة شاملة . أما اللغات العامية فى هذه الأقطار فالاختلاف فيها أوضح وأوسع مدي، لخضوعها للحياة الموضعية ، واختلاف الطارئين علي كل قطر ، وتباين نظام الحياة ومشاهدها ، وعدم خضوعها لوحدة عامة مشتركة بين هذه الشعوب . ولولا هذه اللغة الفصيحة العامة التى توحد بين الأساليب العربية فى التأليف العلمى والانشاء الأدبى لكان اختلاف الأدب قويا ولضعف التفاهم بين المتأدبين كما ضعف بين العوام فى هذه البلاد المتباينة .

الفصل الثانى

الأسلوب والشخصية

كيف يختلف الأسلوب فى الموضوع الأدبى الواحد ؟ ذلك راجع إلى اختلاف الأشخاص الذين يتناولون الموضوع ، أو إختلاف الشخصيات. ما الشخصية ؛ وما عناصرها ؛ وكيف تختلف باختلاف الأفراد ؟ وما مظاهر هذ الاختلاف في الأدب ؟ ذلك ما نحاول بيانه فى هذا الفصل وما يليه .

الشخصية [١] ما يميز الفرد من سواه ، أو هي مجموع الصفات الجسمية والعقلية والخلقيـة التى يتصف بهـا الإنسان ، أو هي الميزات التي تفـرق الشخص من الآخر خيرة كانت أو شريرة ، فالتعاريف قائمة على هـذه الخواص التى نجدها فى فرد ولا نجدها فى غيره كما هى فى الأول . وتكون خلقية كالصدق ، والشجاعة ، والكرم أو ضد ذلك . وعقلية كالذكاء ، وصحة الاستنباط ، وعمق التفكير أو عكسها ، وجسمية كاعتدال القامـة ، وقـوة البنية ، وحسن الهيئة ، أو ما سواها وتكون اجتماعـية كالإيثار . والتحاب والطاعـة . ومزاجيـة كالدموى والسوداوى ، والبلغمى والصفراوى إلى غير ذلك مما يدخل فى تكوين الإنسان ويميزه من سواه . وكثيراً ماتتجلى قوة الشخصية فى الذكاء ، والجاذبية ، والحكمة ، والصراحة ، والثقة بالنفس ، والشجاعة ، وقوة البيان من تلك العناصر التي تدعو إلي المحبـة والاحترام . وتسمو بصاحبها الي ذروة المجد في هذه الحياة .

---

١ راجع فى علم النفس : ج ٣ ، ص ٣٧٠

والناس يختلفون في الشخصية بين قوى وضعيف ، نابه وخامل ، ثابت ومتقلب ، جبار صارم ورقيق وديع ، مبتكر نشيط ومقلد بليد . وقد حفظت الأخبار التاريخية بعض الصفات التي غلبت على سواها وكانت رمزاً لشخصيات أصحابها كعدل عمر ، وكرم حاتم ، ودهاء معاوية ، وجبروت الحجاج ، وشجاعة عنترة . وتكون الشخصية للرجال والنساء ، والمتعلمين والجهال ، والأخيار والأشرار ، وللأفراد والشعوب ، كالنظام الألماني ، والثقة بالنفس الانجليزية ، والفكاهة المصرية ، والجندية التركية وهكذا .

والأدب معرض لظهور الشخصية واضحة ، فمن المقرر أن العاطفة هي التي تميز الأدب من العلم ، وهي التي تبعث فيه الخلود ، وتشربه شخصية الأديب [١] . ففي ديوان الشاعر — مثلا — تجد مزاج الأديب ، وطبعه وخلقه ، ومذاهبه في الحياة ، ومستوى ثقافته ، وظل روحه ، ونظرته إلي الحياة ، وتفسيره للأشياء تفسيراً أدبياً خيالياً أو فلسفياً ، كذلك تعرف نوع كلماته ، وجمله ، وطريقة تصويره وتعبيره . ولست تجد اثنين يتفقان في كل هذه الخواص أو جلها ، كما وكيفا ، اذ كل انسان أمة وحده فيما يصله بالحياة متأثراً ومؤثراً ، ذلك لأنه شخصية وحده فطرها الله ممتازة ، وكونتها ملابسات بعينها ، فاستقامت ذات طبيعة محدودة ، وخطة خاصة ، وكانت هي هذا الفرد الممتاز . ونتيجة ذلك أن الأديب حين يعبر عن شخصيته تعبيراً صادقا يصف تجاربها ، ونزعاتها . ومزاجها وطريقة اتصالها بالحياة — ينتهي به الأمر الي أسلوب أدبي ممتاز في طريقة التفكير والتصوير

---

١ — راجع صحيفة دار العلوم ، السنة الثانية العدد الثالث ص ٣٢ للمؤلف

والتعبير ، هو أسلوبه المشتق من نفسه هو : من عقله ، وعواطفه . وخياله ولغته ، تلك العناصر التي لا تتوافر لغيره من الأدباء . ومن ذلك تكثر الأساليب بعدد الكتاب والمنشئين . فالجاحظ[١] — مثلا — كاتب متعمق مستقص يلح وراء المعانى ، والأوصاف والخواطر لا يترك منها شيئاً ، يطوّع اللغة لعقله وشعوره وخياله فيوردها ألفاظا دقيقة ، ويرددها جملا مزدوجة مقسمة ، ويسهب فيها بعبارات موسيقية فياضة حتى يشتفى ، يجدّ فيبلغ من التحقيق والاحاطة جهد العقول ، ويهزل عابثا ، وخبيثا ماكرا ، يبكي ويسخر ما شاءت له براعته ، ومرونته الخلقية والدينية حتي كأن الجاحظ هو الدنيا جميعاً . وابن خلدون — فى مقدمته — كاتب عالم وشيخ وقور ، معنىّ بالأسباب والنتائج ، ذو عقل رياضي يعرض النظريات ويأخذ فى إثباتها بعبارات متشابهة لا تخلو من الأكلاف اللفظية ، والركاكة الموسيقية ، فليس فى روعة الجاحظ ولا صفائه واستفاضته ، ولا فكاهته وعبثه الماكر . وطه حسين[٢] متأثر بالجاحظ فى أسلوبه ، لا يهجم عليك برأيه فيلقيه إلقاء الآمر ، وانما يلقاك صديقا لطيفا . ثم يأخذ بيدك أو بعقلك وشعورك ويدور معك مستقصيا المقدمات محللا ناقدا يشركك معه فى البحث حتى يسلمك الرأى ناضجا ويلزمك به فى حيطة واحتياط ، ثم يتركك ويقف غير بعيد متحديا لك أو ضاحكا منك . وذلك فى عبارات رقيقة عذبة ، أو قوية جزلة ، فيها ترديد الجاحظ وتقسيمه : فاذا قصّ أو وصف أخذ عليك أقطار الحوادث والأشياء . ودخل الي أعماق الشعور

---

١ — اقرأ الحيوان والبخلاء والرسائل ٢ — اقرأ في الادب الجاهلى وعلى هامش السيرة والايام . وحديث الاربعاء ومن بعيد .

وجوانب النفوس مدققا ، متقصيا يخشى أن يفوته شيء . ولا يخشي الملال في شيء ، دقيق الشعور صافي النفس ، نبيل الجدل حاده ، يسير مع خصمه بعقله حتى اذا آنس منه الغضب أو التدلي تركه وانصرف . وأما احمد امين[1] فرجل يريح قراءه ، ولا يندمج فيهم ، يعرض أدلته ، ويستأثر باستغلالها وينتهى الى نتائجه ، ويقدمها اليهم مستوية ناضجة بأسلوب واضح كل الوضوح ، دقيق كل الدقة ، ثم يعتكف دونهم ، ويغلق في وجوههم الباب. يلقى الحياة بعقله أكثر من قلبه ، ويقف منها على أرض من الحديد . يؤمن بالحقائق ، ويؤديها بلفظها كما تعرفه الحياة الاجتماعية الواقعية ولو تورط في العامية لأنه مفتون بالاستعمال الاقليمي ، وبتأثير الجو في العبارات والتراكيب.

هذا والمشيب في رأى المعري أزهار الرياض وزينتها : —

والشيب أزهار الشباب فماله ... يخفى وحسن الروض في الأزهار

ولكنه في رأى الشريف الرضى سيف مصلت على الرءوس تحمله بدون عناء : —

غالطوني عن المشيب وقالوا ... لا تُرع ، إنه جلاء حُسام

قلتُ : ما أمنُ مَن على الرأس منه ... صارمُ الحد في يد الأيام

ذلك لأن المعرى فيلسوف حكيم يعرف الدنيا ويقبل قوانينها الطبعية مهما يضمر في نفسه من سخط واستياس ، ولكن الشريف محب للحياة ، حريص على الشباب ، متصل بالنعيم فلما أنذره المشيب فزع وارتاع وتوقع النازلة .

* * *

---

١ — اقرأ فجر الاسلام وضحى الاسلام وفيض الخاطر .

ومهما يكن من تأثير الوراثة أو التربية فى تكوين الشخصية ، [١] فانا نستطيع هنا أن نذكر بعض عناصر الشخصية وما قد يكون لها من أثر فى الأسلوب :—

(١) الطبع ، فالرقيق الطبع ترق ألفاظه، وتسهل فقره ، وتلين عباراته. والخشن الجافى تجزل ألفاظه ، وتوجز جمله ، وتقوى تعابيره . إذ كانت الطبائع تجذب إليها من التراكيب والألفاظ ما يلائمها رقة وجفاء كما تجده عند المتنبي والبحترى ، وعند جرير والفرزدق، والعقاد والمازني ، قال القاضى الجرجانى فى ذلك : « وقد كان القوم يختلفون فى ذلك ، وتتباين فيه أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره ، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبايع وتركيب الخلق، فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ومتانة الكلام بقدر متانة الخلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافى الجلف منهم كزّ الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه فى صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته » [٢] .

(٢) أثر البيئة ، فابن البادية المقيم في الفلاة حيث يرى الجدب الغالب ، والطبيعة القاحلة الجرداء ، والجبال الشم ، والصخور الجامدة ، والوعول الممتنعة ، لن يكون كابن الحاضرة المترفة الخصبة يلقي العيش رقيقا والملبس ناعما ، والمزارع ناضرة ، والاخوان ظرفاء ، إذ أن ذلك يطبع الذوق والشعور بطابعه ، فلا يقع اللسان إلا على كفائه من العبارات ، فما كان عدى بن زيد والمنخل اليشكرى كطرفة بن العبد والحارث اليشكرى ويقول

---

١ — راجع (علم النفس) ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ . ٢ — الوساطة ، ص ٢٣ .

الجرجاني في أعقاب كلامه السابق : « ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبي صلى الله عليه وسلم : من بدا جفا . ولذلك تجد شعر عدى وهو جاهلى أسلس من شعر الفرزدق،ورجز رؤبة وهما آهلان لملازمة عدى الحاضرة ، وإيطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب . . . فلما ضرب الاسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب،وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادى إلي القرى ونشأ التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه ، وأسهله ...وتجاوزوا الحد فى طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن ، وحتى خالطتهم الركاكة والعجمة وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق فانتقلت العادة وتغير الرسم ، وانتسخت هذه السنة . واحتذوا بشعرهم هذا المثال وترققوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم ألطف ماسنح من الألفاظ فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول تبين فيها اللين ، فيظن ضعفا ، فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقا ، وصار ما تخيلته ضعفا ، رشاقة ولطفا . . » ومن شواهد آثار البيئة فى الأفراد واستحالتهم ما روى أن شاعرا بدويا قدم حاضرة عامرة فأكرمه صاحبها فمدحه بهذين البيتين :—

أنت كالدلو لاعدمناك دلوا ... من كثير العطايا قليل الذنوب
أنت كالكلب فى الحفاظ على الود ... وكالتيس فى قراع الحروب

فهم بعض أعوان الأمير بقتله ، فقال الأمير : خل عنه ، فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده ، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنا ، وقد لا نعدم منه شاعرا مجيدا ، فما أقام بضع سنين فى سعة عيش وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق ، ونسبت إليه الأبيات :—

يا مَن حوَى وردَ الرياض بخَدهِ وحكى قَضيبَ الخيزُرانِ بقَدّهِ
دعْ عنكَ ذا السيفَ الذى جرّدتَهُ عيناكَ أمضى من مضارب حَدّهِ
كل السيوفِ قواطِعٌ إن جُرّدَتْ وحُسامُ لحظك قاطعٌ فى غمدِهِ
إن رُمتَ تقتلنى فأنت مخيّرٌ من ذا يعارض سيدا فى عبدهِ (١)

ومهما يشك فى صحة هذه القصة التى تعددت رواياتها فليس من شك أن هناك جماعة من الأدباء والشعراء تغيرت آثارهم كما تغيرت عليهم آثار البيئة .

(٣) الثقافة والتربية ، فالمهذب المثقف يكون أعمق تفكيرا ، وأحسن ترتيبا للمعانى ، وأحرص على جمال التصوير ، وصفاء التعبير ، وبذلك تغزر معانيه وتهذب عبارته ، ويتوافر له الملاءمة بين الألفاظ والمعانى . والجاهل الذي لم تصقله التربية أو لم يزود بثقافة كافية ، يقف عند حدود الطبع ويتوجه فى الغالب إلى جمال اللفظ وإشراق الديباجة لعلها تعوض عليه ما فاته من ابتكار المعانى والغوص وراء الأفكار . ولذلك وجد فى الأدب العربى طبقات من كتاب العصر العباسى بلغوا بالترسل مكانة مهذبة ، وتأثر شعرهم بذلك التهذيب والصقل كما يقول ابن رشيق : « والكتاب أرق الناس فى الشعر طبعا ، وأملحهم تصنيعا ، وأحلاهم ألفاظا ، وألطفهم معانى ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم من تكلف » ، (٢) وليس من شك أن ثقافة الجاحظ مما يميزه من البديع والخوارزمى . كذلك وجد شعراء المعانى الذين أغنوا بها الشعر كأبى تمام والمتنبى وابن الرومى كما وجد الممتازون بجزالة اللفظ ورقته

---

١ — مقدمة ترجمة الاليادة ، ص ١٣٨ ٢ — العمدة ، ج ٢ ، ص ٨٤ .

كالبحتري والشريف الرضي، حتى أن أبا تمام إذا فرغ لطبعه وترك التكلف أتى بالعجب، ودل على شخصية تجيد التفكير، وتحسن التعبير لما ظفر به من ثقافة إسلامية جديدة أخصبت عقله، وأكثرت معانيه. ولاشك أنك تجد فرقا واضحا جدا بين أدباء مصر الذين عاشوا أول هذا العصر الحديث وبين من يعيشون بيننا الآن، أولئك ضعفت ثقافتهم فكانت آثارهم لفظية وهؤلاء ظفروا بثقافة قوية متنوعة فجمعوا إلى سلاسة العبارة جدة الموضوعات وثروة المعانى فصار الأدب قيما نافعا.

(٤) الابتكار، فمن الأدباء من يلتفت إلى نفسه. ويثق بها، ويحاول أن يفتح بها أو فيها آفاقا من التفكير أو الشعور أو التخييل ليعرضها كما هى فى أقوى أحوالها وأوضح خواصها دون تحرج أو تكلف، ثم يطوّع أساليب اللغة لطريقة تفكيره وتصويره فاذا به شيء جديد وشخصية ممتازة وقد يلقى انكارا وعنتا، ولكن ما دام مذهبه قوياً خليقا بالبقاء فإن الثورة عليه لا تكون الا فترة تجتازها النفوس لقبول الجديد واقراره ثم يصبح سبيلا معبدة مسلوكة، وقانونا متبعاً محبوبا. وقد لقي أسلوب الجاحظ انكارا ولكنه عاد مدرسة المتأدبين، وواجه أبو نواس ثورة ثم عاد هو قديما، ووجد أبو تمام والمتنبي من أخرجهما من زمرة الشعراء. ولم يلق المجددون من حرب المحافظين ولكن الأصلح منتصر غلاب. هؤلاء المبتكرون هم أصحاب الشخصيات البارزة الذين أنشأوا مدارس أدبية غيرت مجرى تاريخ النظم والنثر وبقيت خالدة على الأيام.

* * *

ومما سبق يمكن ذكر الملاحظات الآتية :

أولا : أن أسلوب الكاتب أو الشاعر أو الخطيب نتيجة طبيعية لمواهبه وصورة لشخصيته هو ، واذا ، فلا يمكن أن يكون صادقا ، قويا، ممتازا الا اذا استمده من نفسه وألفه بلغته ، وعباراته دون تقليد سواه من الأدباء لأن كل أسلوب صورة خاصة بصاحبه تبين طريقة تفكيره ، و كيفية نظره الى الأشياء وتفسيره لها ، وطبيعة انفعالاته ، فالذاتية هي أساس تكوين الأسلوب ، والمقلد يفنى فى غيره ويصبح شخصية منكرة ثقيلة على النفس لاتستحق عناية ، ينصرف عنها الناس الي أصلها الأول وبه يكتفون .

نعم هناك كتاب كبار يستطيعون طبع عصورهم الأدبية بطابعهم والتأثير فى نفوس الناشئين بقوة أدبهم وبراعة أسلوبهم ، كالجاحظ والبديع قديما وطه حسين ، والعقاد ، والرافعى ، وسعد زغلول ، حديثا — ولكن ذلك لا يعفى المتأدبين من الاعتماد علي أنفسهم واظهار سماتهم الأسلوبية مع الإفادة من هؤلاء أو من بعضهم .

ثانيا قد يبدو لبعض الناس التردد في أن الأسلوب صورة صادقة لصاحبه حين يرون حسان بن ثابت شجاعا فى شعره ، جبانا فى عمله ، والبحتري جميل الذوق فى أسلوبه قذرا رث الثياب ، والمتنبي كريما فى قوله بخيلا في حياته،وهذا من غير شك تناقض واضح يعرض ما قيل هنا للرد والتجريح . ولكن الشيء الجدير بالنظر أن هذه النصوص الأدبية التى تعد مظهرا قويا لميزات الأديب وسماته قد صدرت عنه فى حالة نفسية خاصة هي حال الانفعال والتنبه العاطفى ، وسلطان الوجدان على العقل . فيقول مايشاء بوحى الساعة ، حتى اذا ثاب الي عقله عاش بطبيعته العاقلة الأصيلة دون الشاعرة الطارئة . وربما أنكرت حياته الثانية حياته الأولى مما يعد

شبيها بانقسام الشخصية [١] فالأسلوب الأدبي معرض الشخصية الانفعالية التي تسيطر على الانسان سواء أكان منشئا يصدر عن عواطفه المستيقظة أم قارئا ثارت عواطفه إثر ما قرأ من أدب قوى صادق فصدرت عنه لذلك حركات أو أعمال ، أو أقوال طريفة غير مألوفة وقد تنبه لذلك ابن الاثير [٢] حيث يقول ما نصه : « وأعجب ما فى العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبعى فى بعض الأحوال حتى انها ليسمح بها البخيل ، ويشجع الجبان ويحكم بها الطائش المتسرع ، ويجد المخاطب عند سماعها نشوة كنشوة الخمر ، حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو اقدام على أمر مهول . وهذا هو السحر الحلال المستغنى عن القاء العصا والحبال » فاذا كان ذلك شأن السامع فكيف بالمنشىء الذى صدر عنه هذا الكلام الساحر ، وكان ثمرة انفعاله الأصيل وعاطفته الايجابية ؟

ثالثا : أن بيان هذه الصلة بين الأديب وأسلوبه وتوضيح جوانبها يقتضينا أن نعالجها من وجهين : —

الأول : أن نعرض بعض النصوص الادبية لجماعة من الكتاب أو الخطباء أو الشعراء أو المؤلفين . ونحاول تعرف شخصياتهم المتباينة استنباطا من هذه النصوص .

الثانى : أن نفرض أننا نعرف هذه الشخصيات ثم نتبين مظاهرها المختلفة فى الاسلوب : ألفاظه وتراكيبه وصوره البيانية وهذا ما نحاوله فى الفصلين التاليين .

---

١ ـ فى علم النفس ج ٣ ص ١٦٤ ٢ ـ المثل السائر ص ٢٦

وليس من شك أن هذين الوجهين شيء واحد أمام الناقد الذى لا يعرف غير النصوص الأدبية التى يدرسها . فالنصوص أمامنا كالدينار هو واحد ولكنه ذو وجهين . نرى فى كل منها شكلا خاصا يخالف الآخر وان كانت المادة واحدة ، كذلك نحن أمام الآثار الأدبية ، نقلبها على وجهين لنرى فيها من وجه شخصية الكاتب . ونتبين أثر هذه الشخصية فيها من وجه آخر .

وسبب هذا اللجوء والاحتيال أننا فى الأصل لا نعرف هذه الشخصيات إلا من الآثار الأدبية فنضطر الى الوقوف عندها لمعرفة كل شيء على أنه لو أتيح لنا تعرف شخصيات الأدباء الفنية . عن طريق أخرى كالعشرة الصادقة ، ثم كانوا طبيعيين فى تعبيرهم تبين لنا صدق هذه الصلة التى ندعيها بين الأدباء وبين ما ينتجون من أساليب .

الفصل الثالث

دلالة الأسلوب على الشخصية

نحاول فى هذا الفصل أن نتعرف بعض عناصر الشخصية الأدبية من النصوص الكتابية والخطابية ، والنظمية . ويلاحظ أن عناصر هذه الشخصية لا تظهر جميعها للقارىء إلا اذا درس آثار الأديب أو أكثرها قراءة نقدية عميقة ثم وازن بينه فيها وبين غيره وبخاصة فى الفنون المشتركة بينهما ليعرف كيف يختلف الأدباء فى تفسير الأشياء والتعبير عما يتصورون ومن هذا الاختلاف يفرق بين الشخصيات . وليس من المستطاع أن نورد هنا جملة صالحة لكل أديب ونجعلها معرضا للدرس والاستنباط . فذلك من عمل القارىء الذى يجد فى الكتب والدواوين كفايته . وحسبنا أن نورد فى كل فن ثلاثة أمثلة جزئية متوخين أن تتحد فى الغرض ثم نتلمس فيها ما يميز أصحابها . على أن يكون ذلك مثالا يقاس عليه.

أولا : في الشعر

قال أبو تمام يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات :ـــ

لئن همتي أوجدتني فى تقلبي ... مآلا لقد أفقدتنى منك موئلا
وإن رمتُ أمرا مدبر الوجه إننى ... لأترك حظا فى فنائك مقبلا
وان كنتُ أخطو ساحة المحل انني ... لأترك روضا من جداك وجدولا

١ـ راجع العمدة ج ٢ ص ١٢٩

كذلك لا يُلقى المسافرُ رحلهُ الى منقلٍ حتى يخلّف منقلاَ
ولا صاحبُ التطواف يعمر منهلا وربما اذا لم يخل ربعا ومنهلا
ومنذا يُدانى أو يُنأى وهل فتيّ يحلّ عري الترحال أو يترحّلاَ
فُرنى بأمرِ أحوذيّ فانني أري الناس قد أثروا وأصبحت مرملا[1]
فسيّان عندى صادفوا ليَ مَطمنا أعابُ به أو صادفولى مَقتلا

وقال البحترى يعاتب الفتح بن خاقان :—

يَريبُنى الشيءُ تأتى به وأكبر قدرك أن أستريبا
وأكرهُ أن أتمادى على سبيل اغترار فألقى شعوبا[2]
أكذّب ظنى بأن قد سخطت وما كنت أعهد ظني كذوبا
ولو لم تكن ساخطا لم أكن أذمّ الزمانَ وأشكو الخطوبَا
ولا بدّ من لومة أنتحي عليكَ بها مخطئا أو مُصيبا
أيصبح وردى فى ساحتيـ ـك طِرقا ومرعاى محلا جديبا[3]
أبيع الأحبةَ بيع السّوام وآسى عليهم حبيبا حبيبا[4]
ففى كل يوم لنا موقف يشقّ فيه الوداعُ الجيوبا
وما كان سخطك إلا الفراق أفاض الدموع وأشجى القلوبا
ولو كنت أعرف ذنبا لما كان خالجنى الشك فى أن أتوبا
سأصبرُ حتى ألاقى رضا كَ إمّا بَعيداً وإمّا قريبَا

---

١ ــ الاحوذي : الخفيف الحاذق . والمشمر للامور القاهر لها لا يشذ عليه شيء
٢ ــ شعوب : الموت ٣ ــ طرق : خوضته الابل ٤ ــ السوام الماشية والابل الراعية
آسي : أحزن .

أُراقبُ رأيَك حتى يَصحّ وأنظرُ عطفَك حتي يثوبَا(١)

وقال المتنبي يعاتب سيف الدولة الحمداني :ـ

يا أعدلَ الناسِ إلا فى مُعاملَتِى فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحكمُ
أعيذُها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمُه ورَمُ
وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظرِه إذا استوتْ عندهُ الأنوارُ والظُلَمُ
أنَا الذى نظرَ الأعمى إلي أدبى وأسمعت كلماتي مَن بِهِ صَمَمُ
أنامُ مِلء جُفونى عن شواردها ويَسهرُ الخلقُ جَرّاها ويختصِمُ(٢)
وجَاهِلٍ مدّه فى جهلِه ضَحِكى حتى أتَتْهُ يَدٌ فرّاسَةٌ وفَمُ(٣)
إذا رأيتَ نيوبَ الليث بارزةً فلا تَظُنَّنَّ أن الليث يَبتَسِمُ
الخيلُ والليلُ والبيداءُ تَعرفُنِى والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ
يامَنْ يَعز علينا أن نفارقَهم وجدَانُنا كلَّ شيء بعدكم عَدَمُ
ما كان أخلقَنا منكم بتكرِمَةٍ لو أنّ أمرَكُمُ من أمرِنا أمَمُ(٤)
إن كانَ سَرَّكُمُ ما قال حاسدنا فما لِجُرحٍ إذا أرضاكُمُ ألمُ
وبيننَا لو رعيتم ذاكَ مَعرفةٌ إن المعارفَ فى أهلِ النُهى ذِمَمُ
كم تطلبونَ لنا عيبًا فيُعجِزكم ويكره اللهُ ما تأتُونَ والكرمُ
ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ من شرفى أنا الثُريّا وذانِ الشيب والهرمُ(٥)

---

١ ـ يثوب : يعود ٢ ـ شواردها : نوادرها يريد أشعاره ، جراها أي من أجلها ، يقول أنام ملء جفوني عن شوارد الشعر لاني أدركها سهلة متى شئت ، وغيرى من الشعراء يسهرون ويتخاصمون علي ما يتاح لهم منها لعزته عليهم . ٣ ـ يد فراسة : باطشة ٤ ـ أمم : قريب ٥ ـ يريد أنهما بعيدان عنه كبعد الشيب والهرم عن الثريا وهى النجم المعروف

هـذا عتابُك إلا أنّهُ مِقَـةٌ قَدْ ضُمِّنَ الدُّرَّ إلا أنه كلمُ (١)

موضوع القصائد واحد ، هو العتاب ، والأصل فيه تصوير الوفاء والبقيا على ماضى الصداقة ، ثم الأسف والاستنكار لما حدث . لهذا كان موقفا دقيقا يحتاج إلي براعة ، حتى لا يعود هجاء وقطيعة ، وحتى يجمع صاحبه بين الوفاء لصديقه ، والانتصار لنفسه فلا يفْرط فى اللوم فيعود خشنا ثقيلا ، ولا يفرِّط فى الانتصاف فيعود هينا ذليلا . ومع هذا فقد وقف كل من هؤلاء الثلاثه موقفا اديبا يدل على شخصية واضحة ممتازة .

(١) فأما أبو تمام فكان واقفا فى منتصف الطريق لم يقرب من صاحبه جدا ولم يبعد عنه كذلك ، وأخذ يعرض عليه الأمر مستأذنا ، راضيا بما يقع ، مشيرا الي إيثاره علي سواه وهم كثير ، معنيا بنفسه وبفنه يصنعه بدقة وإتقان ، يوسط عقله بينه وبين صديقه . وإذا كان لابد من ذكر ميزاته الشخصية كما تشير هذه الأبيات فأبو تمام ، إنسان ذكى ، حذر ، يعتد بقلبه فيبخل به ، ويؤمن بعقله فيعتمد عليه ، مخلص لنفسه وفنه أكثر من عنايته بالناس ، يرضى بما يكون ، ويقتصد فى اتصاله بالحياة ، قوى الطبع مؤمن بالقضاء .

(٢) وأما أبو عبادة البحترى فقد تقدم الي صاحبه يكاد يحتضنه ، ويلقي بنفسه بين يديه ، لولا براءته من الذنوب ، واعتزازه بأن الحق فى جانبه ، قد ملك عليه الأسف والطمع نفسه ، فعجب أن يرنق ورده ، وصمم على البقاء حيث كان واثقا من ظهور الحق ومعاودة الصفاء . البحترى ، إذا

---

١ — مقة : حب

رقيق الطبع ، جميل الذوق ، لين الجانب ، وفى ، حسن الظن بالأيام ، بارع ، شديد الاتصال بالحياة ، قريب المثال ، طبعى الفن ، متفائل ، ليس فى حذر أبى تمام ولا سخط المتنبى .

(٣) وأبو الطيب شىء آخر فقد نفر من صاحبه ساخطا ، متوعدا ، متعاليا ، يرميه بالغفلة والتحيز ، معتزا بنفسه فخورا بخلقه وفنه مزدريا الرؤساء والشعراء ، ولاهم ظهره غير مباليهم إذ لم يحسنوا تقديره ، ولم يدركوا مكانته ، وإذا ، يودعهم نادمين . وسبب ذلك دالة له على سيف الدولة ، وعرفانه مكانة نفسه . وهذه السعاية التى خضع لها أمير حمدان . فالمتنبى ، جافى الطبع ، طموح ، مغرور ، بعيد الأمل ، قليل الوسائل ، ساخط على الحياة والأحياء ، يؤمن بالقوة ، ويعتز بها ، يثق بشعره إلى أبعد حد ، ولا يرى نفسه دون الملوك ولا من طراز الناس .

ولعل البحترى أرق الثلاثة وأرضاهم ، والمتنبي أجفاهم وأسخطهم ، وأبو تمام أوسطهم وأشدهم حذرا واحتياطا . وقد سئل الشريف الرضي عنهم فقال : « أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحترى فواصف جؤذر وأما المتنبى فقائد عسكر . » [١]

ثانيا : الخطابة [٢]

خطب على ابن أبى طالب فى استنفار الناس إلى أهل الشام فقال :—

أف لكم ! لقد سمت عتابكم ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا وبالذل عن العز خلفا ، واذا دعوتكم الى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم

---

١ — المثل السائر ، ص ٣١٥ . والجؤذر ولد البقرة الوحشية مثل به ظرف شخصيته ٢ - راجع المنتخب ج ١ ، ص ٨٤-٨٨ .

من الموت فى غمرة ومن الذهول فى سكرة ، يرتج عليكم حوارى فتعمهون ، [١] فكأن قلوبكم مألوسة ، [٢] فأنتم لاتعقلون ، ما أنتم لى بثقة سجيس الليالى ، [٣] ولا زوافر [٤] عز يفتقر اليكم ، وما أنتم الا كابل ضل رعاتها ، فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر ، لبئس ، لعمر الله ، سعر [٥] نار الحرب أنتم ، تكادون ولا تكيدون ، وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون ، لا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون . . . أيها الناس ، ان لي عليكم حقا ، ولكم على حق ، فأما حقكم فالنصيحة لكم ، وتوفير فيئكم [٦] عليكم ، وتعليمكم كي لاتجهلوا . وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة فى المشهد والمغيب والاجابة عندما أدعوكم ، والطاعة حين آمركم .

وخطب معاوية حين قدم المدينة عام الجماعة [٧] فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :—

أما بعد فاني ، والله ، ماوليتها[٨] بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي عليكم ، ولكني جالدتكم بسيفي[٩] هذا مجالدة ، ولقد رضت[١٠] لكم نفسي على عمل أبي قحافه[١١] ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سنيات عثمان فأبت على . فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فان لم تجدوني خيركم فاني خير لكم ولاية . والله لاأحمل السيف على من لاسيف له ، وان لم يكن منكم الا ما يشتفى[١٢] به القاتل بلسانه فقد جعلت ذلك له دبر أذني[١٣]

---

١ — يرتج : يغلق فلا تهتدون لفهمه ٢ . مألوسة : مختلطة مضطربة ٣ . طول الليالى أي ابدا ٤ . جمع زافرة . عشيرة الرجل او ركن البناء ٥ . الوقود ٦ = الخراج وما يجبى به بيت المال ٧ . هو عام ٤١ هو فيه صالح معاوية الحسن بن علي ان يبقى معاوية خليفة ٨ . أي الخلافة ٩ أي ضاربتكم به ١٠ = ذللت ١١ . يعني ابا بكر الصديق ١٢ يذهب غيظه ١٣ . خلف اذنه أي اطرحه ولا أبالي به

وتحت قدمى ، وان لم تجدونى أقوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه ، فان أتاكم منى خير فاقبلوه ، فان السيل اذا جاء أثرى[١] ، وان قل أغنى. وإياكم والفتنة فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة .

ومن خطبة زياد بالبصرة : —

أما بعد فان الجهالة الجهلاء[٢] والضلالة العمياء[٣] ، والغى الموفى بأهله على النار ، مافيه سفباؤكم ، ويشتمل عليه حماؤكم ؛ من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لاهل طاعته ، والعذاب الاليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدي [٤] الذى لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا[٥] . وسدت مسامعه الشهوات[٦] . واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون انكم احدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه : من تركك الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . . انى رأيت آخر هذا الأمر[٧] لا يصلح الا بما صلح به أوله . لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، وأنى أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى[٨] والمقبل بالظاعن[٩] والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد[١٠] أو تستقيم قناتكم[١١] أيها الناس انا أصبحنا لكم ساسة . وعنكم ذاده . نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا . ونذود عنكم بفيء[١٢] الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع

---

١ . أثرى . أغنى ٢ - الشديدة ٣ . الشديدة المهلكة ٤ - الدائم ٥ - جعلته لا يبصر شيئا ولا يعنى الا بها ٦ - سار أسير شهواته ٧ - الحكومه الاسلامية ٨ - أعاقب السيد بذنب خادمه ٩ - الظاعن . المسافر ١٠ - مثل يضرب في تتابع الشر ١١ ـ القناة الرمح اوعود يشبهه والمراد ان يستقيموا فى سلوكهم ١٢ . الظل يستعار للسلطان

والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ،ولا حابساً عطاء ولا رزقا عن إبانة، ولا مجمّرا[1] لكم بعثا ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فانهم ساستكم المؤدبون لكم ، و كهفكم الذى اليه تأوون ،ومتي يصلحوا تصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ولا تدركوا له حجتكم ؛ مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم ، أسأل الله أن يعين كلا علي كل .

هذه الخطب الثلاثة تدور حول الحكومة الاسلامية واقرارها بعد الثورة التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان ، والنزاع بين علي ومعاوية ، ونشأة الأحزاب السياسية وعناية معاوية وأعوانه باقرار الحكومة فى البيت الأموي .

(١) فاما على فساخط على العراقيين ، يائس من صلاحهم ، يرميهم بالجبن والغفلة والهوان ، لا تجمعهم كلمة ، ولا يغضبون لكرامة ، ومع ذلك يبين لهم هذه الصلة التي تربطه بهم . وهذه الخطبة صورة لكثير من آثاره الخطابية التى ألقاها إبان النزاع على الخلافة وهى تدل على شخصية

على ، فقد كان شجاعا ، قوى البأس ، ذكي الفؤاد ، واسع العلم شديد الايمان متحرجا فى الدين حدبا علي المسلمين حزينا على حقه المسلوب صريحا فى القول ، غلبت نزعته الدينية علي كياسته السياسيه حتى غلب على أمره . بعكس معاويه . وكان مثله الاعلي قائما علي الشجاعة والتحرج فى الدين مع

---

١ ـ تجمير الجند ابقاؤهم في عملهم وحبسهم فى أرض العدو

دالة على المسلمين لمكانته من الرسول وماضيه في خدمة الاسلام . لم يظفر من العراقيين بشعب يعتمد عليه ويخلص له فعاش مجاهداً حزينا ومات دون تحقيق ما آربه :

(٢) وأما معاويه ، فقد كلم أهل المدينة بلغة المنتصر الشامت ، الذى يرميهم بعدم الكفاية لحسن سيرة الحكام فيهم لانهم تغيروا وفسدت نفوسهم فلابد من سياسة جديدة تلائم نفسيتهم الجديدة ، وهى تقوم علي الحيلولة بينهم وبين السياسة العليا ورضاهم بالواقع . وحامه علي سفه الكلام . واعتداده بالسلوك العملى .

فهو شخصية سياسيه حليمة ، عمليه مرنة ، تصطنع الاناة ، وتبرر الوسائل فى سبيل الغايات لم يتشبث بتحرج على وسرعة غضبه ، اعتمد على عقله اكثر من قلبه ، تلمسه حريرا ولكنك تلبسه شوكا وقتادا . هذه هى الشخصية السياسية المرنة التى غلبت شخصية على المتحرجة فكانت النتيجة انتصار البراعة الاموية على الشجاعة الهاشمية .

(٣) ولكن زياداً رفع في وجوه البصريين — والعراقيين جميعا — سيفا صارما . ولقيهم بأيد خشنة . وأقام عليهم الحجة بما عملوا من آثام ثم رسم الخطة التي يحكم بها مقلدا عمر بن الخطاب ومتجاوزه فى الشدة اذ أخذ بالشبهة وفرض النظام فرضا فلا مفر للناس من اعتناقه ، وان تهادنوا فالسيف أو الباطل يخوضه ليصل الى الحق ، زياد — كهتلر وموسوليني ومصطفي كمال — حازم الرأى ، صارم العزيمة ، ذكي عملي ، اذا اقتنع بالرأى فرضه ، حاد الذكاء واللسان ، منظم التفكير حسن التدبير ، هو وسط بين عمر بن الخطاب والحجاج في سياسته ، مخلص لمصالح الدولة ، غضب من الناس

وألزمهم ما شاء ولكن علياً سخط عليهم وتحاشاهم فكان زياد أصلح حاكم للعراقيين .

ويمكن تلخيص ذلك فى أن عليا شجاع ساخط ومعاوية سياسى بارع وزيادا حاكم حازم .

ثالثا : الكتابة

للجاحظ [١] رسالة التربيع والتدوير التى كتبها الى احمد بن عبد الوهاب:

كان احمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدّعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا ونحسبه لسعة جفرته [٢] واستفاضة خاصرته مدورا. وكان جعد [٣] الاطراف . قصير الأصابع وهو فى ذلك يدعى السباطة والرشاقة وأنه عتيق [٤] الوجه أخمص [٥] البطن ، معتدل القامة، تام العظم . وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل البادّ [٦] رفيع العماد عادي القامة . عظيم الهامة . قد أعطى البسطة في الجسم والسعة فى العلم . و كان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد ، وكأن ادعاؤه لأصناف العلم علي قدر جهله بها ، وتكلفه للابانة عنها على قدر رغبته فيها ، وكان كثير الاعتراض لهجا [٧] بالمراء ، شديد الخلاف ، كلفا بالمجاذبة متتابعا فى العنود ، مؤثرا للمغالبة ، مع اضلال الحجة ، والجهل بموضع الشبهة ، والخطرفة عند قصر الزاد ، والعجز عند التوقف والمحاكمة مع الجهل بثمرة المراء ، ومغبة فساد القلوب . وزكد الخلاف ، وما في الخوض من اللغو الداعى الى السهو ومافى المعاندة من

---

١ ـ رسائل الجاحظ للسندوبي ص ١٨٧ ٢ — وسطه ٣ — ملتو ٤ — جميل
٥ ـ ضامر فارغ ٦ — باطن الفخذ ٧ — ملازما له

الأثم الداعي الى النار . وما في المجاذبة من النكد ، وما في المغالبة من فقدان الصواب ، وكان قليل السماع غُمرا [١] وصحفيا غفلا [٢] لا ينطق عن فكر ويثق بأول خاطر ولا يفصل بين اعتزام الغمر . واستبصار المحق . يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها : ويحسد العلما، من غير أن يتعلق منهم بسبب وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب ... أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك . قد علمت حفظك الله أنك لا تحسد علي شيء حسدك علي حسن القامة . وصخم الهامة ، وعلى حور العين ، وجودة القد وعلى طيب الأحدوثة . والصنعة المشكورة ، وأن هذه الأمور هي من خصائصك التي بها تكلف ، ومعانيك التي بها تلهج . وانما تحسد أبقاك الله ، المرء شقيقه في النسب . وشفيعه في الصناعة ، ونظيره في الجوار علي طارف [٣] قدره أو تالد حظه أو علي كرم في أصل تركيبه ومجاري أعراقه . وأنت تزعم أن هذه المعاني خالصة لك . مقصورة عليك وأنها لا تليق إلا بك ولا تحسن إلا فيك ، وأن لك الكل وللناس البعض وأن لك الصافي ولهم المشوب . هذا سوى الغريب الذى لا نعرفه ، والبديع الذي لا نبلغه ، فما هذا الغيظ الذى أنضحك ، وما هذا الحسد الذى أكمدك وما هذا الاطراق الذى قد اعتراك ، وما هذا الهم الذي قد أضناك ؟

وكتب بديع الزمان [٤] الهمذانى إلى أبي الطيب في شأن شخص متغير عليه :—

أنا — أطال الله بقاء الشيخ الامام — بصير بأبناء الذنوب ، وأولاد

---

١ — عديم التجارب ٢ مجرد من المزايا والصحفي من اخذ علمه من الصحف ولم يلق العلماء ٣ الحديث وضده التليد ٤ رسائل بديع الزمان ص ١٠٦ طبعة بيروت .

الدروب [١] أعرفهم بشامة ، وأثبتهم بعلامة ، والعلامة بيني وبينهم أن يفسدوا الصنيع على صانعه ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويرموا في الحكاية سهم الشكاية ، ويجيلوا في الشكاية قدح النكاية ، [٢] ثم لا يرون النكاية إلا السعاية ، وإن أعوزهم الصدق مالوا إلى الكذب ، وإن حلم لهم الجد عرضوا باللعب ، ومن علاماتهم قبيح مقاماتهم. وإيراد ظلاماتهم موارد النصيحة لكبرائهم . ومن آياتهم كثرة جناياتهم على الفضلاء وشدة حنقهم على من لم يخطرهم بباله ، ولا يحطبهم في حباله ، [٣] فاذا انضاف إلى ضيق أكنافهم سعة آنافهم [٤] وإلى قبح مقاماتهم صغر قاماتهم والي خبث محضرهم خبث منظرهم ، والى صعر خدودهم ، غلظ جلودهم ، [٥] والى لين فقاحهم غلظ ألواحهم ، فذلك من أعلى القوم طبقة في السفال ، وأبعدهم غاية في النكال . والذي فاوضني القاضي في معناه ، جلى في بابه ما حكاه ، ويجمع هذه الخصال وقيادة ، وينظم هذه الأوصاف وزيادة ، فلم يبعد الشيخ عن مثله أن يكذب ؛ ألطهارة أصله أم نجابة نسله ، أم حصانة أهله أم رجاحة عقله أم ملاحة شكله ، أم غزارة فضله ؟ ولم يجوز على ما حكاه ؟ ألم يؤوني طريدا ، ويلمني حصيدا ، [٦] ويؤنسني وحيدا ، ويصطنعني [٧] مبديا ومعيدا ، وكان بقدري أنه اذا رآني أفعل شنيعا أو سمع أني ألفظ بنكر لم يأل [٨] في تحسين أمري فعل الوالد بولده من جهته . ونظر المولى لصنيعه أقرب . والآن اذ عاد الأمر الي العتاب فهلم الي الحساب ، ان كنت أخللت بطرف

---

١ — اللقطاء ٢ — أي أنهم حين يشكون ظلما يدسون لغيرهم ٣ — أي لم ينتصر لهم ويحميهم ٤ — مطمع مع العجز ٥ — التكبر مع الهوان ٦ — حصيد أي محصود مهمل ٧ يحسن الى — ٨ لم يقصر

من طاعتى من جهة فقد نقصنى ما عودني من وجوه . وذلك أنه كان لايتجاسر أحد على أن يغرينى [١] عنده ، فقد صار يغريني عنده ويبرى جلده ، وكان يقوم قناتى [٢] فقد صار يحبط حسناتى ، وكان يثمر مالي فقد صار يبطل آمالى ، وكان يحشد [٣] لأمرى احتشاده لأمره ، فقد نبذت وراء ظهره . وقد كان يحتمل فقد صار يتحامل ، وكان لا يضايقنى فى الألوف من الدراهم والدنانير ، فقد ضايقنى فى الشعير فى حمل بعير ، وللعبودية ذل اليهودية ودل المرودية ، [٤] والادلال مع الاذلال [٥] والطاعة مع الافضال ، [٦] فليستأنف الشيخ حال المولى ليستأنف حال العبد ، [٧] والله من وراء التسديد [٨] ونعم الوكيل

ومن فصل كتبه ابن خلدون [٩] — فى أن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب — وكان فى ذلك متأثرا بعصبية بربرية أو تركية سلبت الملك من العرب ، وبجالية من عرب المغرب الجاهلين :—

والسبب فى ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام حوائد التوحش وأسبابه فيهم ، فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذا . لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم ، وعدم الانقياد للسياسة ، وهذه الطبيعة منافية للعمران ، ومناقضة له ، فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب . وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له ، فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصبه أثافى [١٠] للقدر فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ويعدونه لذلك ، والخشب أيضا انما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ، ويتخذوا الأوتاد منه

١- يغرينى بفتا بنى ويجرحنى ٢- يصلح من شأني ويستر عيوبي ٣-يحشد بجمع أي كان يعنى بشئوني . ٤-المرودية كون الانسان أمرد ناشئا ٥-اى لا يدل على الامن أذلنى بالانعام علي ٦-اى أطيع من أفضل على ٧-ليعد النظر في حال صديقه حتى ينظر في حال عبده هذا ٨-التقويم والتوفيق ٩- المقدمة ص ١٦٥ ، مطبعة التقدم ١٠-جمع اثفية : حجر توضع عليه القدر .

لبيوتهم فيخربوا السقف عليه لذلك ، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذى هو أصل العمران . هذا فى حالهم على العموم ، وأيضا فطبيعتهم انتهاب مافى أيدي الناس وأن رزقهم فى ظلال رماحهم ، وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون اليه بل كلما امتدت أعينهم الي مال او متاع او ماعون انتهبوه ، فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة فى حفظ أموال الناس وخرب العمران . وأيضا فلأنهم يتلفون على أهل الاعمال من الصنائع والحرف أعمالهم ، لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الاجر والثمن . والأعمال — كما سنذكره — هي أصل المكاسب وحقيقتها واذا فسدت الاعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الأيدى عن العمل وأبذعر السكان[1] وفسد العمران . وأيضا ، فانهم ليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض ، انما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهبا أو مغرما فاذا توصلوا الى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أمورهم والنظر فى مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد وزجر المتعرض لها بل يكون ذلك زائدا فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض فتبقي الرعايا فى ملكتهم كأنها فوضى وحكم الفوضي مهلكة للبشر ، مفسدة للعمران . وايضا فهم متنافسون فى الرياسة ، وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أوأخاه او كبير عشيرته الا فى الاقل وعلى كره من اجل الحياء فيتعدد الحكام منهم والامراء وتختلف الايدى على الرعية فى الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقض.

---

١ ـ تفرقوا

هذه فصول يجمعها موضوع واحد عام هو الانكار والهجاء ومع ذلك فهى دالة على كتاب ثلاثة متمايزين .

(١) أما الجاحظ فقد سلك في رسالته طريق التصوير المضحك ، والسخرية المرة . معتمدا على المقابلات وعرض المتناقضات ، يقلب صاحبه بين يديه ويعبث به قبل أن يقتله ، فاذا به شكل غريب ، وخلق عجيب ، وغرور وحسد ، وجهل ولجاجة ، مع حسن القامة وعظم الهامة وحور العين وطيب الأحدوثة . . . ثم يلح فيما يتناول ، ويبالغ في سرد الكتة ، ويدس السم في الدسم حتى تركه صورة أو قصة تضحك القارئين وتعجب المتاديين على مر العصور .

فالجاحظ خبيث ، ماكر عابث ، ساخر ، يغيظ عدوه وهو يضحك ملء شدقيه ، ويقتله وهو آمن مستريح ، دقيق الملاحظة ، واسع النظرة بارع فى الأسلوب طيعه ، خبير بدخائل النفوس ، لا يبالي ما ضحي به فى سبيل فنه ومآربه ، متنوع الثقافة ، فيلسوف الحياة يهزأ بها وبالناس ومذاهبهم وعصبياتهم يتأنى فيما يتناول حتى لا يترك لغيره مجالا . لا يتحرج ولا يتشدد خبر الحياة من جميع نواحيها فكان صورتها المخلوقة ولغتها الناطقة

(٢) وأما البديع فقد هاجم خصمه مباشرا . ونال منه بالسب البذيء إذ رماه بالكذب والجمود ، والسعاية ، وسوء الخلق ، وضعة الأصل وضعف العقل . مع سخرية قليلة بأسلوب انكارى عنيف . وأخذ يوازن بين حاليه الأولي أيام كان راضيا ، والثانية بعد أن صار ساخطا . . كل ذلك وهو غاضب عابس الوجه حاقد القلب ثائر العاطفة ليس فيه هدوء الجاحظ ومرونته وسعة صدره وبراعة حيلته ، وسلاسة أسلوبه ، فالبديع ، إذا

ذكى ، صريح ، قوي الطبع ، عنيف ، هجاء . ، حريص على المال ، ضيق الصدر ، شديد الحس ، ينصرف ذكاؤه إلي التصوير الفني وذكاء الجاحظ منصرف إلى الاحاطة النفسية والجسمية ، كلاهما يردد ، ولكن ترديد الجاحظ استكمال وتجديد ، وترديد البديع تكرار وتصوير . وليس البديع فى خبث الجاحظ ومكره وسخريته وإن كانت براعته الفنية ممتازة بجزالة العبارة ، وقوة التصوير .

(٣) وأما ابن خلدون فقد ذهب فى مهاجمة العرب مذهب العلماء ، والمناطقة ، اذ اعتمد على التقرير ، وإقامة الدعوى ، وتأييدها بالبراهين ، مستعينا فى ذلك بما شهد من أحداث ، وعرف من نظريات ، فى أسلوب عادى بسيط وموجدة متوارية مكبوته لاتكاد تظهر ، لايعمد إلي التكرير والتهويل ؛ فهو ، إذا ، رجل عالم . وقور ، يلقى الحياة بعقله التام ، هادىء ، له عقله الرياضى المنتظم ، بأسلوب رتيب ، لا يتنوع ، كأنه قياس منطقي مقرر لا يسب خصمه ، وإن نال منه بماهو شر من السباب . لم يتوافر له دهاء الجاحظ وبراعته ، ولا عنف البديع وجزالته ، يستملي الحياة ويكتب ، وكلاهما يتصور الحياة ويسطر . هو عالم ، وهما أديبان .

رابعا ـ التأليف

وربما لم تكن هناك حاجة إلي الكلام فى هذه النقطة بعد ما سبق من أن الأسلوب العلمى — ومنه التأليف — لايعد معرضا قويا لظهور الشخصية كماهو الشأن فى الأسلوب الأدبى ، إذ العلم يرتكز على العقل أكثر من سواه ، ومظهر العاطفة فيه ثانوى أو شكلى لاغير ، والعقل — مهما يتفاوت الناس فى قوته وانتظام تفكيره — لا تبلغ أشكاله ، وألوانه ، مبلغ العاطفة ،

التى تعرض علينا الأمزجة ، والأخلاق ، والأخيلة ، والأذواق ، والمذاهب الاجتماعية والأدبية وغيرها . على أن الأساليب العلمية الخالصة لا تكون الفروق اللفظية فيها كثيرة ، ولا قوية ، وربما كان خضوعها لمناهج البحث وموضوعاته أشد وأوضح .

ومع ذلك فليس ما يمنع — اعتمادا على اختلاف مناهج البحث العلمي ، وعلى مقدار تفرد العقل فى التأليف ، وأثر ذلك فى العبارة — أن نشير هنا إلى مظاهر اختلاف الشخصيات فى الكتب العلمية أيضا ، ولكن فى ايجاز .

طه حسين فى الأدب الجاهلى ، وأحمد أمين فى فجر الاسلام وضحاه ، ومصطفى عبد الرازق فى البهاء زهير ، ثلاثة مؤلفون ، وزملاء علميون ، تجمعهم رابطة الثقافة العالية ، والقيام على دعم وتنظيم طرائق البحث العلمى فى هذه البلاد . ولكنهم مع ذلك كله يتغايرون فيما سلكوه من مناهج ، وفيما تحروا من غاية ، وفيما سطروا من أساليب .

طه حسين يضع مراجعه خلفه ، ومصطفى عبد الرازق يضعها أمامه ، وأحمد أمين يضعها بجانبه .

طه حسين يدعو إلى المناهج الحديثة ، ويتحدى المحافظين مستفزا ثائرا وأحمد أمين يطبق هذه المناهج ، ويقنع المحافظين هادئا معتدلا . ومصطفى عبد الرازق يختار من هذه المناهج ، محتاطا محبوبا رزينا . طه حسين يعرض نفسه فقط ويكتب بأسلوبه القوى ، وأحمد أمين يعرض نفسه وغيره ويكتب بأسلوبه الواضح .

ومصطفى عبد الرازق يعرض العلم والعلماء بأسلوبه الجميل . واذا أردت

أن تعرف ذلك فارجع الي هذه الكتب التى ذكرت تجد طه حسين داعيا ، جريئا ، متحديا ، يعرض نظرياته وآراءه فى سرعة كأنه يريد من الزمن الاسراع ، ويفرض على بنيه الفروض، يشير الي المراجع جملة ، كأنها معروفة ومقروءة ، ثم يبنى عليها ما شاء من النتائج في ثقة وبراعة لم تسلم من السخرية والفكاهة . وأسلوبه هنا يغلب عليه التقرير العلمى وان لم يسلم من الصفات الأدبية المعروفة . وأحمد أمين هادىء ، موضوعي ، مخلص للحقائق ، يساير الزمن ، ويعرض مصادره وشواهده مستشيرا ناقدا ثم يستعين بها أمامك وينتهى الى نتائجه فى قصد بأسلوبه العلمى الخالص .

ومصطفي عبد الرازق يجمع الوثائق في أمانة ونظام ، ويعرضها عليك منسقة ، فى سلك منطقي ، وذوق أدبى، تتحدث بنفسها عن حقيقتها ، وينتهى الى نتائجها دون أن يلح فى الظهور فكأن الحياء الجميل ، والتواضع الجم ، والحيطة الشديدة قد غلبت عليه فقدم الماضين أمامه كما كانوا وذلك فى أسلوب صاف ، دقيق جميل .

وارجع الى القدماء لترى عبد القاهر الجرجانى — فى كتابيه دلائل الأعجاز وأسرار البلاغة — العالم الأديب الواثق بنفسه ، والمعتز بمذاهبه البلاغية ، وابن الأثير ـ فى المثل السائر ـ الأديب ، المغرور الفخور بفنه دائما ، والمبرد الجليل ذا الذوق الأدبي الجزل . وهكذا تجد للشخصيات مظاهرها فيما يترك الأدباء من آثار .

الفصل الرابع
أثر الشخصية فى اختلاف الأساليب

وأما فى هذا الفصل فالمراد بيان آثار هذه الشخصية فى الأسلوب . ومعنى ذلك أننا نفرض معرفتنا ، شخصيات جماعة من الأدباء كتابا وشعراء ، وخطباء ، ثم نلتمس مظاهر هذه الميزات الفردية فيما ينشئون من نصوص أدبية . ونقصر الكلام فى هذا على نواح ثلاثة :—

الأولى من حيث الألفاظ حين يختلف الأدباء فى الألفاظ والجمل ، والفقر والعبارات .

الثانى من حيث المعانى كالمطابقة بين اللفظ والمعني ، أو ترجيح جانب اللفظ على جانب المعنى — وعكس ذلك .

الثالثة من حيث الصنعة حيث يعمد الأدباء الي الأسلوب الطبعى أو المصنوع صنعة بديعية ، قوامها ، السجع ، والجناس ، والمطابقة ، ونحو ذلك

وسنحرص هنا على الايجاز مكتفين بالاشارة الى بعض الأمثلة ومحيلين الى ما سبق ذكره فى الفصول السابقة .

الناحية الأولي

وتتناول الاختلاف فى الألفاظ ، والجمل ، والفقر ، والعبارات والمراد بالألفاظ الكلمات المفردة التى تتألف منها الجمل ، وهي أسماء ، وأفعال ، وحروف ، ولكنها مع ذلك ذات خواص متباينة : كأن تكون دقيقة محدودة أو مبهمة مشتركة ، اصطلاحية علمية أو فنية عامة رقيقة أو خشنة ،

عامية أو فصحى ، موسيقية رشيقة ، أو عادية جافة ، لونية أو صوتية إلى نحو ذلك .

وتتألف الجملة من الألفاظ لتؤدى فكرة واحدة تامة . وتكون الجملة اسمية أو فعلية ، خبرية أو إنشائية ، طويلة أو قصيرة ، جزلة أو رقيقة تامة العناصر أو مختصرة ، مثبتة أو منفية ، أصلية أو فرعية وغير ذلك.

والفقرة عدة جمل متصلة تكون فصلا من المقالة ، وهى تقوم على الصلات بين الجمل ، وتنوعها ، وربطها معا ، ففيها الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة ، وفيها الرابطة اللفظية والمعنوية التي تصلها بما قبلها وما بعدها . وتكون بسيطة سهلة أو معقدة مضطربة ، وهي تختلف بحسب موقعها من الموضوع مقدمة أو نتيجة أو غرضا .

وأما العبارة فهي العنصر اللفظى من الأسلوب . أوهى هذا الأسلوب اللفظي الذي يقابل الأسلوب العقلى والصورى ، والعبارات تقوم علي هذه العناصر المذكورة قبلا ثم تتأثر بمنهج البحث وبالموضوع وبمزاج الكاتب، وذوقه وطبيعته كلها. والأدباء يختلفون في ذلك كله تبعا لطبائعهم وأذواقهم ، وثقافتهم وبيئاتهم فترى الموضوع الواحد من الفن الأدبي . يتوارد عليه أصحابه فاذا كل طراز بعينه فى اختيار الكلمات ، وصوغ التراكيب والعبارات التي تمثل نفسه وخلقه ودرجة انفعاله . يقول ابن الأثير[1] : « اعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ، ولطافة مزاج ، ولهذا

١ــ المثل السائر ص ٦٩

نرى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد ، وتري ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى » وهذا القانون طبعى فى الخطابة والكتابة اذ كانت شخصية الأديب تتخذ من هذه العناصر اللفظية وسيلة للتعبير عن طبيعتها ، وعرض مزاياها .

(١) فاذا رجعت[1] الى هؤلاء الشعراء الثلاثة — أبى تمام ،والبحترى والمتنبي — وهم يعتبون ، تبين لك ، رقة البحتري ، وجزالة أبى تمام ، وقوة المتنبي فى الألفاظ المفردة ،ثم سهولة البحترى وتدقيق أبى تمام وصرامة المتنبي فى الجمل . والبحترى بعد ذلك سلس العبارة عذب الموسيقا ، له ديباجة الحرير واطراد الماء الجاري ، وأبو تمام محكم العبارة ، مركب الموسيقى بطيء متئد يتقن الصنعة ، ويؤلف التراكيب بحكم العقل ،وأما المتنبي فعبارته — كخطته فى الحياة — سريعة موجزة ، عجلي ، لا تبالى بما قد تتعثر فيه من أخطاء وتعقيد ، فاضطراب العبارات عند أبى تمام نتيجة صنعته المقصودة وهو عند المتنبي ثمرة سرعته الشديدة وهجومه العنيف ومع ذلك فاقرأ هذه الأمثلة للبحترى .

ذاك وادى الأراك فاحبس قليلا مقصرا من صَبابة أو مطيلا
قف مَشوقاً أو مسعدا أو حَزينا أو معينا أو عاذرا أو عذولا
ان بين الكثيب فالجزع فالآ رام ربعا لآل هندٍ محيلا
لم يكن يومنا طويلا بنعما نَ ولكن كان البكاء طويلا

---

١ - راجع الفصل الثالث من هذا الباب .

تجد العبارات متدفقة متواصلة ، تمر كالنسيم العليل أو الألحان العذبة ، لا توقف فيها ، ولا تكلف ، لأن البحترى يستلهم بها طبعه السمح ونفسه الراضية ، وعاطفته الرقيقة الصادقة ، وذوقه الفنى الجميل[١] ولأبي تمام :

لو حارَ مرتاد المنية لم يَجِدْ إلا الفراقَ على النفوسِ دَليلا
قالوا الرحيل فما شككت بأنها نفسى من الدنيا تُريد رحيلا
الصبر أجملُ غيرَ أن تلذّذا فى الحب أحرى أن يكون جميلا
أتظنّنى أجد السبيل الى العزا ؟ وجدَ الحمام اذا إلىّ سَبيلا
ردّ الجموح الصعبِ أسهل مطلبا مِن ردّ دمعٍ قد أصاب مسيلاَ
ذكرتكم الأنوار ذكرى بعضكم فبكت عليكم بكرة وأصيلا
انى تأملت النوى فوجدتها سيفا على أهل النوى مسلولا

نرى آثار عقله وصنعته وحذره وأناته وذكائه [٢] فى التنسيق المنطقى وإحكام التركيب شرطا وجزاء ، واستثناء ، وترتيبا ، واستنباطا فعبارته كالموسيقى المقسمة المتئدة أو الماء الجارى بين الصخور . يتمهل ليظفر بالمنافذ والمسارب وللمتنبي :—

وللسرّ منّى موضعٌ لا يناله نديمٌ ولا يفضى إليه شراب
وللخود منّي ساعةٌ ثم بيننا فَلاة الى غير اللقاء تجاب [٣]
وما العشق إلا غِرّة وطماعةٌ يعرض قلبٌ نفسه فيصاب

---

١ - راجع فى الفصل السابق ماكتب عن شخصية البحترى ٢- راجع ماكتب عن شخصية أبي تمام فى الفصل السابق ٣- الخود : الفتاة الناعمة والفلاة الصحراء الواسعة . تجاب تقطع

وغير فؤادي للغواني رميـة وغير بنـانى للزجاج ركاب [١]
تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهن لعاب [٢]

فهذه الشخصية العجلة العنيفة ، الطامحة المتعالية [٣] قد جعلت الكلمات قوية متحركة ، والتراكيب موجزة منوعة والعبارة منساقة بسرعة كالريح العاصف، أو الموسيقى الصاخبة ، أو السيل يجرف ما يصادفه لا يبالي كيف تكون النتيجة .

وتجد نحو ذلك بين جرير والفرزدق . وبين حافظ وشوقى ، والعقاد والمازنى ومطران ، والجارم ، . لكل ميزاته الشخصية فيما يقول .

وهؤلاء الكتاب الذين أشرنا الى صفاتهم الشخصية فى الفصل الماضى — الجاحظ ، والبديع ، وابن خلدون — وأوردنا شواهد من آثارهم يفترقون فى التعبير كذلك ، فالجاحظ يتحرى دقة الألفاظ ليحسن الوصف ويردد الجمل ببعض عناصرها ليستكمل معانيه ويؤكدها ، ويلجأ الي الازدواج والتقسيم الموسيقي دون التزام السجع ، ويستخدم الاعتراض داعيا أو محترسا ويطنب ملحا وراء الأفكار والصور ، ويكثر من المقابلة والتقسيم ، ولكن البديع يتخير جزل الألفاظ والتراكيب ، ويكثر من الصور البيانية التى هى تكرار صورى للفكرة الواحدة ، يكثر من البديع طباقا وجناسا . يقتبس لغة الشعر ليوشي بها نثره . سجعه قصير ، وعبارته جزلة ايجازية اذا قيست بعبارة الجاحظ السمحة المبسوطة ، فالرجلان يمثلان مدرستين مختلفتين فى التفكير والتصوير والتعبير . وابن خلدون دقيق الكلمات بسيط العبارات

---

١ الرمية ما يرمى بالسهام . والبنان أطراف الاصابع والزجاج كؤوس الخمر ٢- القنا عيدان الرماح . المفرد قناة . واللعاب الملاعبة ٣- اقرأ عن شخصية المتنبي في الفصل السابق

تشيع فيها المصطلحات العلمية والفنية ، رتيب الأسلوب لا ينوعه ، لا يسلم من الركاكة والجفاء ، ولا يتراءى فيه الجمال والبراعة ، مبنى بالمعنى أكثر من اللفظ ، نزعته تقريرية ، فهو من طراز آخر ، واذا كان لا بد من اختصار ذلك كله فالجاحظ فى أسلوبه جميل ، والبديع قوى وابن خلدون واضح

واذا ذهبت تتبين شواهد ذلك بين المعاصرين من الكتاب وجدت أشكالا شتى من العبارات التى تمثل الشخصيات . فالمازنى سهل جميل ، والعقاد جزل عنيف ، وهيكل واضح هادىء ، والبشرى دقيق اجتماعي ، وهكذا لكل سمة عليه غالبة .

(٣) أما الخطباء فليسوا أقل من زملائهم في هذه الناحية . فهذا معاوية بن أبى سفيان الداهية ، الحليم ، والسياسى البارع ، [١] تقرأ خطبته فتلقي ألفاظا سهلة وجملا كأنها رسالة مكتوبة ، وعبارات منطقية مطردة كأنها عتاب ، أو خطة للحكم يعرضها رئيس الحكومة علي النواب ، لا إغراب ، ولا عنف جعلها المنطق الاقناعى ، والتحبب العاطفى الحذر أشبه بعقد مصالحة أو قصيدة عتاب .

وزياد بن أبي سفيان الحاكم الحازم ، والقوى الصارم [٢] يعتمد علي نوعين من التأثير : المعنوى ، واللفظى ؛ فالكلمات جزلة قوية ، والسجع والمبالغة وقوة التصوير شائعة في خطبته البتراء « أما بعد فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ... أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات » وجمله قصيرة عنيفة ، متنوعة « لين في غير ضعف ، وشدة من غير عنف . فاياى ودلج الليل فانى لا أوتى بمدلج الا

١ ـ راجع خطبته وما كتب عنه في الفصل السابق ٢ ـ اقرأ ما كتب عنه في الفصل الماضى .

سفكت دمه .. فمن غرق قوما أغرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا . » وعبارته على العموم حسنة التقسيم ، والتنويع ، قوية التأثير ، سريعة الحركة ، فهي كشعر المتنبي أوامر صارمة أو مراسيم ملكية . وأما الحجاج بن يوسف الثقفي فقد أربى على زياد . وتجاوز العنف الي التهديد والوعيد والى الرغبة في الدماء ، وتمني المصارع والمهالك . كان الحجاج جاهليا ، جبارا ، لا يراعي حرمة دينية ولا يؤمن الا بالقوة والتخويف ، يقوم الحكم عنده علي السيف ويفترق عن زياد بطغيانه الشديد علي الرعية ، مع ضعفه أمام الخليفة عبد الملك ، ولكن زيادا مع عنفه في الحكم استطاع أن يعرف لنفسه كرامتها مع معاوية . وعلى أية حال فان خطبة الحجاج حين ولى العراق ، [1] تعد معرضا لصفاته المذكورة ، فالألفاظ ضخمة كالصخور ، والجمل مقتضبة صاخبة ، والتصوير يمثل الهلاك والبلاء ، والعبارة أقوى من إعلان الحرب . والتأثير يعتمد فوق ذلك على اقتباس الأشعار وآيات الانذار الارهابية :ـ

أنا ابن جَلا وطلّاعُ الثنايا متى أضعِ العمامةَ تعرفوني

يأهل الكوفة إني لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى . ثم قال بعد أبيات :ـ

قد شمّرتْ عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتَرٌ عُرُدّ مثلُ ذِراع البَكر أو أشدّ

لا بُدَّ مما ليس منه بدّ

---

١ — اقرأها فى المنتخب ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

ثم يقول : والله لأحزمنكم حزم السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ، فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون،

وكان سعد زغلول خطيبا كامل الأداة ،قوي التأثير ، بارع الأسلوب، يجمع بين قوة الاقناع ، وبلاغة الأداء ، ومصطفى النحاس تغلب عليه فى خطابته النزعة التقريرية الوصفية مع صحة المنطق ووضوح العبارة ، ومكرم عبيد ، يعتمد فى التأثير على التصوير البيانى ، والخيال الشعرى ، فاذا حاول الاقناع عاد مقررا ، أو كاتبا أديبا .

الناحية الثانية

وهناك مظهر ثان لآثار الشخصية فى الأسلوب ، هو مقدار الصلة بين اللفظ والمعنى ، فمن الأدباء من يطابق بين اللفظ والمعنى ، ومنهم من يعنى بأحدهما أكثر من الآخر .

(١) والأصل الذى يتصل به هذا المظهر هو أن الغرض من التعبير والبيان إظهار مافى النفس من الحقائق ، والعواطف والأخيلة وايصالها الي القراء والسامعين ، ووسيلة ذلك هى الأسلوب — أو العبارات اللفظية — اذ كانت غايته الافهام أو التأثير أوهما معا . ومعنى هذا أن الواجب على الأسلوب تحقيق هذه الغاية تحقيقا كاملا ، فلابد أن يكون صادق الأداء ، مساويا للمعني المراد ، لايزيد ولاينقص . وقبل ذلك يكون الأديب المنشيء (١) فاهما مايريد أداءه ، صادق الشعور به (٢) وعنده الوسائل اللغوية والتصويرية اللازمة ،فاذا ماتوافر له ذلك، استطاع البليغ أن يحقق المطابقة

بين اللفظ والمعنى ، وأن يجعل كلا منهما كفءا للآخر . وأما القاعدة النفسية أو العملية لهذه الظاهرة فهي أن ما يتوافر فى نفس الأديب من من فكرة واضحة أو انفعال صادق يجذب اليه من الألفاظ ، والعبارات ، والصور ما يلائمه بطريقة تكاد تكون آلية لاتكلف فيها ولاصنعة ، وهذا هو المثال الطبعي للاسلوب . وفى هذا المعني يقول ابن رشيق [١] : « اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضعف المعني واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذي يعرض للاجسام من المرض بمرض الأرواح ، ولاتجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه علي غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فان اختل المعنى كله وفسد ، بقى اللفظ مواتا لافائدة فيه وان كان حسن الطلاوة فى السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء فى رأى العين الا أنه لاينتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنا لانجد روحا في غير جسم ألبتة . » وهذا الذى ذكره ابن رشيق كما يجري في الشعر ينطبق علي النثر تماما : « وبعضهم وأظنه ابن وكيع مثل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة فان لم تقابل الصور الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس ، فقد بخست حقها وتضاءلت فى عين مبصرها [٢] » ويقول ابن الأثير [٣] : « اعلم أن العرب كما كانت تعتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها

---

١ — العمدة ، ج ١ ، ص ٢٨ ، ٢ — نفس المرجع ، ص ٨٢ ، ٣ — المثل السائر ، ص ١٣٧

فان المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأشرف قدرا فى نفوسها ، فاول ذلك عنايتها بألفاظها لأنها لما كانت عنوان معانيها ، وطريقها الى أظهار أغراضها أصلحوها وزينوها، وبالغوا فى تحسينها ليكون ذلك اوقع لها فى النفس وأذهب بها فى الدلالة على القصد... فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ، ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظن أن العناية اذ ذاك انما هى بالألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني ، ونظير ذلك ابراز الصورة الحسناء في الحلل الموشيه والأثواب المحبرة فانا قد نجد من المعانى الفاخرة ما يشوه من حسنه بذاذة لفظه وسوء العبارة عنه . »

والمطابقة بين اللفظ والمعني تتحقق بالتعبير الطبيعى الذى يترك فيه الأديب نفسه علي سجيتها السمحة دون أن يعمد إلى صنعة أو تكلف ، فيكون من ذلك المساواة وصدق الأداء وتنوع العبارة حسب الموضوع والشخصية كما سبق ذلك فلا حاجة هنا إلى اعادته أو تمثيله . ونشير هنا إلى أن مظاهر هذه المطابقة كما تتراءى فى الألفاظ والعبارات ، تظهر أيضاً فى الوزن الشعرى أو البحر العروضى الذى يختاره الشاعر ، وفى القافية التى يؤثرها علي غيرها [١] ، وفي الصور الخيالية التى يصور بها عواطفه ،ليكون الأسلوب من روح المعنى وعلى مثاله من غير حاجة الى ركوب الضرورات الشعرية [٢] ومع ذلك فان حاولت الظفر بأمثلة لذلك رأيتها أمثال عبد الحميد الكاتب ، وزياد بن ابيه والبحترى ممن يعدون طبيعيين فى التعبير ، ولم يتشبثوا بصنعه . ولم يحبسوا نفوسهم عند تعمق في المعانى ، ولا تكلف فى الالفاظ . فهذا البحترى يذكر قتال الاقارب معاً ، وما يلابسه من

---

١ — راجع الصناعين ص ١٣٣ ، ١٤١ ٢ — راجع نقد الشعر لقدامة ص ٥٥ .

عواطف متباينة ، إذ يصطدم الحب والبغض ، والشفقة والقسوة ، وتمتزج الدماء بالدموع ، بأسلوب لا يصلح غيره لتصوير هذه الحالة التي كانت بين بني تغلب : —

أَسِبتُ لأخوالي ربيعةَ إذْ عَفتْ مَصايفُها منها وأقوتْ رُبُوعُها[١]
بِكُرهِيَ أنْ باتت خلاء دِيارُها ووحشا مَغانيها ، وشتّى جَمِيعُها[٢]
وأمسَت تساقي الموت من بعد ما غدت شُروبا تساقي الراح رفهاً شُروعها[٣]
إذا افترقوا عن وقعةٍ جمعتهم لأخرى دماءٌ ما يُطَلُّ نجيعُها[٤]
تذمُّ الفتاة الرؤد شيمةَ بعلها إذا بات دون الثأر وهو ضجيعُها[٥]
حمية شغبٍ جاهليٍّ وعزة كليبية أعيا الرجالَ خضوعها[٦]
تُقتل من وترٍ أعز نفوسها عليها بأيد ما تكاد تُطيعها[٧]
اذا احتربتْ يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر ارماح تقطّع بينهم شواجر ارحام ملوم قطوعها[٨]

فمن أية ناحية نظرت الي هذا النص وجدته مطابقا لمعناه أحسن مطابقة : بمزالة تلائم مواقف الحروب وتقسيم ومقابلات لتصوير الصلات المتناقضة ، وصور تمثل ماملك النفوس من تعاطف مكبوت وغل ثقيل بغيض وعبارة موسيقية تردد بعناصرها اللفظية ما يتردد فى النفس من

---

(١) اسبت : حزنت . ربيعة : اصل تغلب . اقوت : خلت (٢) المعانى : المنازل . شتى : متفرقة (٣) الشروب . القوم يشربون ، رفه . لين ، شروع . مورد العين (٤) يطل يهدر . النجيع الدم (٥) الرؤد . الشابة الجميلة . دون الثأر . لم يظفر به (٦) الشغب تهيج الشر . كليبية نسبة الى كليب التغلبي المعروف
(٧) الوتر الثأر (٨) شواجر ارماح ، رماح متشابكة اثناء المعركة وشواجر الارحام صلات القربى التى تجمع المتحاربين .

تيارات عاطفية متنافرة . لذلك تجد اسلوب الشاعر هنا بطيئا بعض الشيء يشبه اعتذار ابي تمام السابق وذلك لاضطرار البحترى الى شيء من الصنعة والجزالة يحقق به حسن التصوير ودقة التعبير فذلك هو الاسلوب المطبوع .

(٢) ومع ذلك فقد ظهر منذ العصر الجاهلى جماعة من الشعراء[١] عدلوا عن هذه الطبيعة الفياضة ، وعمدوا الي اسلوب الشعر يهذبونه ، ويصقلون لفظه بحذف غريبه أو متنافره ، والحرص على انسجام موسيقاه وتحرى مساواته ، والتناسب بين فقره وجمله ، ليكون جزلا حسن السبك مع خلوه من التكلف الممقوت والبديع المقصود ، حتى صار الاسلوب الشعرى صنعة أو فنا يقصد اليه ويعني باحكامه وخلوه من الفضول اللفظى والغلو المعنوى . وكان زهير بن أبي سلمى أنجب تلاميذ هذه المدرسة وكان الحطيئة أنجب تلاميذ زهير وتبعهم بعد ذلك ابو تمام — فى بعض شعره — ومسلم بن الوليد ، وعبد الله بن المعتز ممن اخذوا عن السابقين إحكام الاسلوب فيما بعد ، واتخذوه حرفة يدوية وعبث اطفال . يقول ابن رشيق[٢] « ومن الشعر مطبوع ومصنوع فالمطبوع هو الاصل الذى وضع أولا وعليه المدار . والمصنوع وان وقع عليه الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل ولكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ومالوا اليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح

---

١ — راجع فى الادب العربى لطه حسين ص ٢٨٤ طبعة ثالثة والصناعتين ص ١٣٥ — ١٣٨

٢ — العمدة جزء أول ص ٨٣ و١٧٢

والتثقيف ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك ، والعرب لا تنظر فى أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وابرازه واتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافى وتلاحم الكلام بعضه ببعض » ومن ذلك قول زهير يمدح هرم بن سنان :

وأبيض فياضٍ يداه غمامةٌ على معتفيه ، ماتغب فواضله [١]

أخى ثقة لا يهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله [٢]

تراه اذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

فالشعر بريء من التنافر والاغراب ، مع حذف الفضول ، والقصد فى المعنى وحسن التناسق بين الجمل ، وبين المعانى حتى بدا محكما متقنا ملحوم الجوانب قد عمل فيه العقل والذوق بجانب العاطفة . وقد مضى مثال الحطيئة فى باب المديح . ويقول ابن رشيق [٣] : « فأما حبيب ـ أبو تمام ـ فيذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنع المحكم طوعا أو كرها يأتى للأشياء عن بعد ويطلبها بكلفة ، ويأخذها بقوة . وأما البحترى فكان أملح صنعة . وأحسن مذهبا في الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ : لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة . وما أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنعا من عبد الله بن عبد المعتز . فان صنعته خفية لطيفة ،

---

١ — ابيض نقى من العيوب فياض كثير العطايا . معتفيه : سائله ، تغب . تنقطع ٢ — النائل : عطاء . راجع الصناعتين ، ص ٩٨ . ٣ — العمدة جزء أول ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

لاتكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وهو عندى ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعا وافتنانا وأقربهم قوافي وأوزانا ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب » ثم يقول [١] : « وقال بعض من نظر بين أبي تمام وأبى الطيب ـ المتنبى ـ انما حبيب كالقاضى العدل يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه ، بعد طول النظر والبحث عن البينة أو كالفقيه الورع يتحرى فى كلامه ويتحرج خوفا علي دينه. وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهرا وعنوة ، أو كالشجاع الجرىء يهجم على ما يريده لا يبالي مالقى ولا حيث وقع».

ونحو ذلك حصل في النثر أيضا ، فلقد كان فى صدر الاسلام جزلا طبعيا يرتجل فى كثير من الأحيان ويكون فيضا طبعيا لما فى النفوس من المعاني ، سواء فى ذلك الأحاديث، والخطب ، والرسائل، حتى جاء عبد الحميد الكاتب [٢] فكانت آثاره طبيعية سهلة لاصنعة فيها ولا تكلف ، وكان بجانبه عبد الله بن المقفع [٣] يقوم فى النثر بما كان يقوم به فى الشعر زهير والحطيئة وأبو تمام ، فى خير شعره. وكان كتاب العصر العباسى الاول — كأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة وابراهيم الصولى [٤] — يحكمون الرسائل ، وينشئونها جزلة ، دقيقة المعانى ، عالية الأسلوب، كما كتب عمرو ابن مسعدة الى المأمون فى رجل يستشفع له بالزيادة فى منزلته عنده ، وجعل كتابه تعريضاً لنفسه : « أما بعد فقد أستشفع بى فلان ياأمير المؤمنين لتطولك على فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون ، وأعلمته أن

---

١ — نفس المرجع ، ص ٨٧ ٢ ، ٣ — راجع آثارهما في رسائل البلغاء التي نشرتها مجلة المقتبس ٤ — راجع تاريخ أدب اللغة في العصر العباسي

أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام . » فكتب اليه المأمون : « قد عرفنا تصريحك، وتعريضك لنفسك ، وقد أجبناك اليهما ، ووقفناك عليهما . » وجاء الجاحظ فى القرن الثالث فكان استاذ المدرسة خاصة أو كان هو هذه المدرسة الكتابية التى أشرنا اليها فيما مضى . وأما كتاب الصنعة البديعية فقد كانوا في القرن الرابع[١] الهجرى ، وهم الذين فتحوا بابا كان فيما بعد شرا على الأساليب الأدبية لما دخل فيه المتكلفون العاجزون ، وقد عرفت طرفا من أساليبهم عند بديع الزمان .

وعندى أن هذه الطبقات من الشعراء والكتاب تمثل طورا طبيعيا من أطوار الحضارة الأدبية التى تعنى بالأدب كما تعني بسواه ليكون أقوم أسلوبا ، وأجمع بين قيمة المعانى ، وقوة الأساليب، على أنهم كانوا ـ وبخاصة بعد الإسلام ـ متأثرين بألوان من الفنون ، والعلوم الاسلامية والدخيلة وبفراغ وتنافس . . . أكسبت الأدب هذا الوضع الفنى الجديد، فلا لوم عليهم ولا عتاب ، ولا مانع أن ينضافوا الي السابقين كما يرى ابن الأثير[٢] (٣) وبعد ذلك تواجهنا هذه القضية الكبيرة ، أو المعركة العنيفة ، بين أنصار اللفظ ، وأنصار المعنى ، فان هذه الثقافة الواسعة التى توافرت للادباء ، منذ العصر العباسي ، مع ذكاء العقل قد حملتهم على العناية بالمعاني فغذوا الأدب بأفكار فلسفية ، وآراء دينية ، وملاحظات دقيقة عميقة، وكان أبو تمام من أسبق الشعراء وأظهرهم فى ذلك ، ثم ابن الرومى ، والمتنبى ، وأبو العلاء فى ذخيرته الفلسفية ـ اللزوميات ـ وكان من ذلك ، ولا سيما

---

١ — راجع النثر الفنى لزكى مبارك ٢ ـ المثل السائر ، ص ١٣٧

عند شعراء الصنعة ، أن ضعفت روعة اللفظ وسلاسته ، وبذت عليه الجفوة العلمية أو الكلفة البديعية ، وبجانب هؤلاء بقي آخرون محتفظين بالطبع السمح والديباجة السهلة الجميلة كالبحتري وأبي العتاهية والعباس بن الاحنف وظهرت لهم مقطوعات بالغت فى السهولة حتى عادت باردة سخيفة.

فكان من ذلك ، ولأسباب أخرى ، أن نشطت حركة النقد ، وانتصر جماعة لكل فريق ، واختلف الباحثون حول هذه المسألة : أين تقع البلاغة : فى اللفظ أم فى المعنى ؟ وأى هذين الفريقين من الشعراء أظفر بعمود الشعر ، وأجدر بالاحترام ؟ وخلاصة ما يحتج به أنصار اللفظ [١] أن المعانى معروفة للناس ، سهلة الادراك ، يكفي أن تكون صحيحة ، ولكن البراعة البيانية إنما هي فى الألفاظ وصوغ العبارات . وأما أنصار المعاني فيقولون [٢] : إن المعنى هو المقصود بالأداء ، وهو مجال الابتكار ، وحسن التصور ، واللفظ تابعه فى ذلك فجماله من جماله. ويدور جهد عبد القاهر الجرجانى على أن البلاغة فى الأسلوب تنتهى إلى نظم الكلام وفق حاجة المعنى ، وبذلك تتحقق المطابقة بينهما ، ويكتسب اللفظ حسنه بصدق أدائه .

ولكنك عرفت أن هذه المسألة قد فصل فيها الآن ، وأن البلاغة تقوم على حسن التعبير كما ترتكز على قيمة التفكير . [٣]

(٤) وعلى الرغم من ذلك فقد وجد من الأدباء من يؤثر اللفظ على المعنى ، فيجعله غايته ومتجه عنايته ، ويقصد إليه ، فاما أن يجعله — فى

---

١ — راجع مقدمة ابن خلدون ، ص ٦٥٨ ، والصناعتين ، ص ٥٥ ٢ — راجع دلائل الاعجاز ، ص ٤٠ و ٧٠ ، ٣٠٧ و ٣٢٠ طبعة المنار ٣ — صحيفة دار العلوم عدد ٢ من السنة الثانية ، ص ٣٠ للمؤلف ، وفيض الخاطر لاحمد أمين ، ص ٣٠١ .

الشعر — فخما مجلجلا . لا يتناسب مع معناه كابن هانىء الأندلسى حيث يقول :—

أصاخت فقالت : وقع أجرد شيظم وشامت فقالت : لمع أبيض مخذم (١)
وماذُعرت إلا لجرس حليهـا ولا رمقت الا بري فى مخدم (٢)

يصف امرأة تترقبه، فتوهمت وقع حوافر فرس ، ولمع سيف ، واذا بها تسمع حليها ، وترى لمعها . ومن يستمع لهذا الصخب اللفظى يظن أنه حماسة أو حرب قائمة (٣)

واما أن يجعله سهلا مفرطا ، كما وقع لأبي العتاهية :—

يا إخوتى ، انّ الهوَى قاتلي فسيرّوا الأكفانَ من عاجل
ولا تلوموا فى اتباع الهوى فانني فى شُغُل شاغل
عيني على عُتبةَ منْهلّة بِدمعِها المنسكب السائل
يا مَن رأى قبلى قتيلا بكي من شدة الوجد على القاتل

فهذا الشعر ، كما ترى ، سهل ، لين ، ليس بينه وبين النثر العامى فرق كبير ، وللبهاء زهير نحو هذا الأسلوب الذي تسمعه ، فكانك تسمع الشعب المصرى في حواره وأحاديثه، جدا وهزلا ، فى عبثه وأفاكهه ، وفى كل مايلابس حياته ٤ الوادعة المطمئنة فى هذا الوادى الخصيب. وكذلك الشأن فى النثر فقد غلبت العناية اللفظية على فن المقامات ، وصارت بذلك وسيلة لتعليم اللغة ، وتراكيبها ، وبعض عباراتها وأساليبها الجزلة وقد أسبقنا القول فى ذلك فلا نعيده هنا .

---

١ أصاخت : أصغت . أجرد شيظم : الفرس الفتي . شامت نظرت ابيض مخدم سيف قاطع
٢ ـ البرى جمع برة كل حلقة من سوار وقرط وخلخال المخدم موضع الخلخال ٣ـ العمدة ، ج ١ ، ص ٨٠ ٤ ـ البهاء زهير المؤلف

و كذلك وجد من الأدباء من يؤثر المعني علي اللفظ ، فيعنى بعمقه وكثرته ، وجدته ، وتوليد بعضه من بعض ، ثم لا يعنى بأن يلبسه كفاءه من اللفظ الكاشف الواضح أو السلس العذب ، أو القوى المتين ، فيقع فى التعقيد ، أو الخشونة ، أو الهجنة ، أو التكلف الممقوت فيفسدون اللفظ ويبهمون المعنى ، وقد تورط فى ذلك — من الشعراء — أبو تمام والمتنبي في بعض شعرهما وكذلك ابن الرومى . ومن الكتاب ابن خلدون العالم والمؤرخ المشهور ، ونورد هنا بعض الأمثلة ، من ذلك قول أبى تمام .

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسناته آثام

ففي هذا البيت اضمار جعل معناه غامضا على الرغم من محاولة الدلالة عليه بالشطر الثانى . وتقديره أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنة ، فكأنما حسناته آثام ، وذلك من قوله تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » وقوله :—

وظلمت نفسك طالبا انصافها فعجبت من مظلومة لم تظلم

معنى ذلك أنك أكرهت نفسك على مشاق الأمور لنيل المجد ، فهى إذا ، مظلومة من حيث الوسيلة التى كابدتها . ولكنها منصفة من حيث الذكر الجميل والمجد المؤثل ، فكانت مظلومة لم تظلم ، وذلك من قول السموءل :—

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيل

وقول المتنبي يمدح على بن احمد الطائى بسداد الرأي ، والتفرد فى ذلك :—

فتي ألف جزء رأيه في زمانه أقلُّ جزىء بعضُه الرأى أجمعُ

ونظام البيت كما يلى : هو فتى رأيه فى زمانه ألف جزء . وأقل جزىء منه ، بعضه هـو كل ما عند النـاس من الرأى . وقال على بن عيسى الرماني : « أسباب الاشكال ثلاثة : التغيير عن الأغلب كالتقديم والتأخير وما أشبهه ، وسلوك الطريق الأبعد ، وإيقاع المشترك . وكل ذلك اجتمع فى بيت الفرزدق :—

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حى ، أبوه يقاربه

فالتغيير عن الأغلب سوء الترتيب ، لأن التقـدير وما مثله في النـاس حى يقاربه إلا مملكا أبو أمـه أبوه ، يريد بالمملك هشام بن عبـد الملك ، والممدوح هو ابرهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك . وأما سـلوك الطريق الأبعد فقوله : أبو أمه أبوه ، وكان يجزئه أن يقول خاله ، وأما المشترك فقوله: حى يقاربه لأنها لفظة تشترك فيها القبيلة والحى من سائر الحيوان بالحياة . قال : واذا تفقدت أبيات المعانى رأيتها لا تخرج عن هذه الأسباب الثلاثة » وكتب النقد والبلاغة ملأى بهذه النماذج ، وأما ابن خلدون فقد مضي فصل من كلامه .

* * *

(٥) ومما يتصل باللفظ والمعنى مسألة الايجاز والاطناب والمساواة وقد وردت هذه الألفاظ فى كتب البلاغة أوصافا للعبارة ، وعناصرها ، من حيث ما تؤدى من معان ، فاذا قصُر اللفظ عن المعنى كان ايجازا ، وان طال لفائدة كان اطنابا ، وإن تساويا كان مساواة أو تقديرا . ولرجال البلاغة كلام كثير فى هذه الأقسام ، وفيما يدخل تحتها من فروع لا حاجة

---

١ ـ العمدة ج٢ ص ٢٥٦

بنا الي تكرارها هنا . ويمكن الرجوع اليها فى المثل السائر لابن الأثير [٢] وسواه ، وقد تناولتها كتب البلاغة ـ غالبا ـ فى سياق الجمل والفقر . فمن ذلك فى المساواة قوله تعالي ، « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » وقول جرير .

تمنى رجالٌ من تميم منيتى وما ذاد عن احسابهم ذائد مثلى
فلو شاء قومى كان حلمى فيهم وكان على جهال أعدائهم جهلى

وفى الايجاز قوله تعالى « ولكم فى القصاص حياة » وقول امرىء القيس :—

فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

والمراد لو أنها نفس تموت موتة واحدة لهان الأمر . ولكنها نفس تموت موتات ، وفي الاطناب قوله تعالى « فانها لا تعمى الأبصار :ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ففائدة ذكر الصدور هنا أنه قد علم أن العمي مكانه البصر حقيقة ، واستعماله فى القلب غير متعارف فلا بد من زيادة التقرير ليعرف أن العمي الحقيقى فى القلب لا العين ، وقول البحترى . .

تردد فى خلقى سؤدد سماحا مرجي وبأسا مهيبا
فكالسيف ان جئته صارخا وكالبحر ان جئته مستثيبا

فالبيت الثاني يدل على معنى الأول الا أن فيه زيادة بيانية تفيد تخييلا وتصويرا .

ولكننا نشير هنا الى هذه الأوصاف من ناحيتها العامة التى تبدو فى

---

١ ص ٩١ وما بعدها .

العبارة اللفظية لمقال ، أو خطبة ، أو رسالة ، أو وصف أو قصيدة ، وفى مقدار ما يصل بينها وبين الأغراض والمعاني كلها مجتمعة ، فمن الكتاب من يؤثر الايجاز حتى يصل الى التوقيعات والاشارات . ومنهم من يسهب ويطيل كما فى الخطب والمقالات الصحفية غالبا . ومنهم من يساوى ويغلب ذلك فى الرسائل والمقالات العلمية . وقد ضرب ابن الأثير مثلا لذلك فى وصف بستان ذي فواكه متعددة ، فالايجاز هو قوله تعالي «من كل فاكهة زوجان » والاطناب قول ابن الأثير : « جنة علت أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت بينبوعها أن تستجدى سماء وهى ذات ثمار مختلفة الغرابة ، وتربة منجبة ، وما كل تربة توصف بالنجابة ، ففيها المشمش الذى يسبق بقدومه ، ويقذف أيدى الجانين بنجومه ، فهو يسمو بطيب الفروع والنجار ، ولو نظم فى جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نضار . . الخ » كذلك أورد للأطناب مثلا من الرسائل والتقاليد فلتراجع هناك .

والنثر العصرى لا يميل الى الايجاز إلا فى التوقيعات الديوانية ، والكلمات السائرة ولكنه بعد ذلك أميل الى الاطناب ثم المساواة ، وحسبه حياة تخلصه النهائى من هذه الصنعة البديعية والاغراب اللغوى ، الى خير مستوي ظفر به فى حياته من ثراء المعانى وروعة الأساليب .

الناحية الثالثة

وهي ناحية الصنعة البديعية ، والتكلف المقصود ، طمعا فى زخرفه الأساليب ، وتوشيتها بالسجع ، والجناس ، والمطابقة ، والاستعارة ، ونحوها من عناصر التحسين اللفظى أو المعنوى . وقد كانت هذه المحسنات ترد فى

الشعر القديم قليلة وعفوا دون تكلف، واستجابة لقوة المعني وصدق تصويره كقول أبي ذؤيب الهذلي مستعيرا:ـ

واذا المنيةُ أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لاتنفع [١]

وقول حيان بن ربيعة الطائي فى التجنيس :ـ

لقد علم القبائلُ أن قومى لهم حَدٌّ اذا لُبس الحديدُ [٢]

وقول زهير فى المطابقة .ـ

ليثٌ بِعَثَّر يصطادُ الرجالَ اذا ما الليث كذّب عن أقرانه صدقا [٣]

« فلما أفضي الشعر الى المحدثين . ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن، وتميزها عن أخواتها فى الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع ، فمن محسن ومسيء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط » [٤] وقد قيل ان « أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد وابن هَرمة وهو ساقة العرب ، وآخر من يستشهد بشعره ، ثم اتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمرو العتابي ، ومنصور النمرى، ومسلم بن الوليد وأبو نواس واتبع هؤلاء حبيب الطائى ، والوليد البحتري ، وعبد الله بن المعتز فانتهى علم البديع والصنعة اليه ، وختم به . » [٥]

والذى يعنينا هنا ـ فى الشعر ـ أن هؤلاء الشعراء اختلفوا فى مقدار عنايتهم بالصنعة البديعية، فاختلفت أساليبهم فى النظم تبعا لذلك . فأما أبو تمام فكان ـ فى كثير من شعره ـ أشد الشعراء تعلقا بالبديع ، وأكثرهم تكلفاله ،

١ـ التميمة ما يحمله الانسان مخافة الحسد أو الشر ٢ـ الحد البأس والقوة ٣ـ عثر مأسدة أى أنه كأسود هذا المكان ٤ـ الوساطة ، ص ٣٨ ٥ـ العمدة ج ١ ص ٨٥

ولاسيما الطباق ، والجناس ، والاستعارة ، والتقسيم حتى شوهت شعره ، وذهبت بكثير من روعته وجلاله. فاذا لاحظنا أنه أضاف إلى ذلك محاولته الاغراب اللفظى تقليدا للقدماء ، ثم اجتلابه المعاني الغامضة . والاغراض الخفية التى احتمل فى سبيلها كل غث ثقيل ، علمنا سر ما تورط فيه من اضطراب فى التعبير ، وتعقيد فى الأسلوب ، حتى صار هذا القسم من شعره إذا قرىء أجهد الفكر ، وركد الخاطر فى فهم معانيه ، وتصور أخيلته وأغراضه . وما كان هذا سبيل الشعر ولا أسلوب الفن الجميل ، فصار أبو تمام علامة التكلف الثقيل ، والصنعة الفاسدة فى قسم من شعره ليس بالقليل . ولو أنه جرى مع طبعه ، وجانب التكلف ، مع معانيه المبتكرة وأخيلته الجميلة . لكان سيد الشعراء غير مدافع [١] . فانك حين تقرأ له ما ورد أول هذا الفصل من الشعر القوى الجميل تعجب كيف يحيد عنه جريا وراء البديع ، وتعلقا بالصنعة الممقوتة ليقع فى مثل هذه الاستعارة القبيحة : —

باشرتُ أسباب الغِنى بمدائح ... ضربتْ بأبواب الملوك طبولا
ضِرام الحبِ عشّشَ فى فؤادى ... وحضّن فوقه طير البِعاد
كأنني حين جرّدتُ الرجاءَ له ... عَضْبٌ صَببتَ به ماء على الزمن

او هذا الجناس المستكره . —

إن مَن عقّ والديه لملعون ... ومن عقّ منزلا بالعقيق
فاسلمْ سلمتَ من الآفات ماسلمت ... سِلامُ سليمىَ وهما أورق السلمُ

أو ذلك الطباق المتكلف : —

---

١ - راجع الوساطة ، ص ٢٤

قد لانَ أكثر ما تريدُ وبعضُه خشن وانى بالنجاح لواثق
وان خفرَت أموال قوم اكفهم مِن النَّيل والجدْوى فكفاهُ مقطعُ

وشرٌ من ذلك هذه المعاظلة بتداخل الكلمات، وركوب بعضها بعضا . ـ

خان الصفاء أخٌ خان الزمانَ أخا عنه فلم يتخون جسمه الكمدُ (١)

وقد وقع المتنبي فى مثل ذلك كما تشبث به المتأخرون فافسدوا الشعر وذهبوا بروائه .

وأما البحترى وابن المعتز فقد غلب عليهما الطبع السمح ، وسهولة الأسلوب ، وعدم الكد وراء المعانى العميقة والألفاظ الغريبة ، ويتلخص أسلوبهما في السهولة ، وعدم الشغف بالبديع ، الا ماجاء طبعيا أو خفيا لا يكاد يظهر ، ومعنى هذا أن قيمة شعرهما قائمة ، في الغالب، على جمال الاسلوب وطبعيته ، وحسن التصوير الخيالى ، فكانا مدرسة أخرى تقابل مدرسة أبى تمام ، وقد مضت أمثله لشعر البحترى نعيد منها هذا البيت فقط : —

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربي ففاضت دموعُها

لنلحظ فيه هذا التقسيم ، وحسن الترتيب ، والمطابقة الملائمة بين الشطرين فى المعني ، وهكذا اذا عرض له البديع ، ويقول عبد الله بن المعتز يصف سحابة ماطرة : —

ومُزنة جادَ مِن أجفانها المطرُ فالروضُ منتظمٌ والقطرُ منتثرُ
تَرى موقعَها فى الأرض لائحةً مثلَ الدراهِم تبدو ثم تستترُ

---

١ ـ راجع الموازنة بين الطائيين ، ص ١٠٥ ـ ١٢١ ، طبعة الجواب ، ويريد بالبيت خان الصفاء أخ خان الزمان أخا من اجله ، فلم يتخون جسمه الكمد . أى لم يؤثر الحزن في جسمه وفاء لاخيه

فيجمع بين الاستعارة ، والمطابقة ، والتشبيه ، ومع هذا لاترى تكلفا ثقيلا ولاتعمقا عويصا .

وبين هذين الطرفين نضع مسلم بن الوليد ، فقد جمع بين الصنعة المعتدلة وتجويد الشعر والبطء في صنعته حتى سموه زهير المولدين [١] . واستطاع بذلك أن يفترق من أبي تمام بقرب المعانى من جهة ، وبسلامة عبارته من الغريب ، والتكلف الممقوت ، ولاءم بذلك بين اللفظ والمعني ، فكان لشعره موسيقا قوية جميلة ، كقوله يهجو دعبل الخزاعى . ـ

أما الهجاء فَدقّ عِرضُك دونَه والمدحُ عنك كما عِلمتَ جليلُ
فاذهب ،فأنتَ طليق عِرضك إنه عِرضٌ عززْتَ به وأنت ذليلُ

فقد طابق بين المدح والهجاء وبين الدقة والجلالة ، وبين العز والذلة ، مع جدة المعنى ، وإحكام التراكيب وحسن تقسيمها ، فكان بذلك من عبيد الشعر .

وأما فى النثر فقد عرفت مما سبق أن هذه الصنعة البديعية قد انتهت الي غايتها المقبولة على يد كتاب القرن الرابع الهجري ، أمثال بديع الزمان والخوارزمى ، والصاحب بن عباد ، وابن العميد ، هؤلاء الذين عرفوا بالسجع والجناس والطباق ، واقتباس لغة الشعر أو تضمين معانيه ، وقد استطاعوا لاحاطتهم اللغوية ، وقدرتهم الأدبية أن يجعلوا أساليبهم مقبولة ويخففوا آثار هذه الصناعة ، إلا أن كثيرا ممن خلفهم على هذا الفن ـ وبخاصة بعد سقوط بغداد وفي عصر المماليك ـ لم يظفروا بمكانة السابقين فى اللغة والأدب ، ثم غلوا فى البديع فأضافوا الي ما سبق التورية والاستخدام

---

١ — العمدة ، ج ١ ، ص ٨٥

والتلميح للحوادث الشهيرة ، ثم التصحيف الذى كان مجال البراعة عند المتكلفين . وقد نشأ عن ذلك فساد الأساليب ، وركتها ، والتضحية بالمعانى فى سبيل الألفاظ

ويمكن إرجاع ما كان بين كتاب الصنعة ، من خلاف فى الأساليب الى أصلين :—

الأول موضوعي حين انتقل بها بعضهم من الرسائل الخاصة ، والديوانية والعامة الى كتب العلم أو مخاطبة الملوك فى الشؤون الدولية ، فى حين أن هاتين الناحيتين مظهر عقلى أو مصلحى يلائمه الأسلوب البسيط الواضح ومن ذلك أن عماد الدين الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتب فى التاريخ بهذا الأسلوب الذى عاد مغلقا فألف كتابه ـ الفيح القسى فى الفتح القدسى ـ وصف فيه فتح صلاح الدين بيت المقدس بعبارة مسجوعة منها : « ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا . وبالعزم غالبا . وللنصر مصاحبا ، ولذيل العز ساحبا ، قد أصحب ريض مناه ، وأخصب روض غناه . وأصبح رائج الرجاء ، سيب العزف ، طيب العرف ، ظاهر اليد ، قاهر الأيد ، سنا عسكره قد فاض بالفضاء فضاء ، وملأ الملأ فأفاض الآلاء »

والثانى شكلى حين يختلفون في مقدار حرصهم على المحسنات وما يجمعون منها فى رسائلهم وفى طول السجع وقصره ، ودقة الطباق . وطبيعة الأسلوب . وقد رأيت مثالا للبديع يمثل السجع القصير . والقصد فى الجناس وملاءمة الطباق . ونورد هنا قسما من رسالة[٢] لشهاب الدين ابن فضل الله العمرى ـ تصور لنا التعلق بالصنعة في غير موضعها ثم الاسراف فيها

---

١ و ٢ احمد الاسكندرى تاريخ أدب اللغة العربية في الدول المتتابعة ص ٩٢ .

حتى عادت غثة غير مقبولة ـ كتبها بين يدي سلطانه الى نائب الشام صحبة طيور صيد جوارح أرسلها اليه قال بعد الديباجة: « ولازالت مواهبنا تخصه بالمزيد ، وتتفحه بما يريد ، وتجعل له من الجوارح ما تعترف لها السهام بأنها بغير جناحيه لا تصيب ولا تصيد . صدرت هذه المكاتبة الي الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح . وثناء يطير اليه ، وكيف لا تطير قادمة بجناح ، ونعلمه أن مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما يقتى من رسمه وجرت عادة صداقتنا الشريفة أن تحسب فى قسمه . وقد جهزنا له الآن ثلاثة طيور لا يبعد عليها مطار ولا يوقد القرى فى غير حماليقها جذوة نار . ولا تؤم صيدا إلا وترشى بدمه فلا يلحقها بغبار ».